نبيل جديد

الاولاد

قصص قصيرة

الفهرس

الفهرس 2

الاهداء 3

الأولاد 4

الأعور 12

مقتل السيد عصام بدر 14

هامش استثنائي 29

يوسف 39

الشرف 49

جسد حبيبتي الشهي 57

بانوراما عصامية 62

الاهداء

الى أحبائي :

الذين يعرفون كيف يهطلون امطارا و كيف يتساقطون صواعق .

نبيل

الاولاد

1- ما يحدث في هذة اللحظات

تمرق سيارة بيضاء مسرعة عابرة المدينة و تتوقف امام مبنى رسمي. يترجل ثلاثة أشخاص، ويدخلون الدائرة، يسأل أحدهم عن "السيد عصام بدر"، فيصطحبونه معهم و يقفلون عائدين.

تنسحب السيارة من حيث أتت، و السيد عصام حائر مرتبك، لا يعرف معنى كل ذلك، لكنه يبتسم بحزن وأسى، و يتذكر حزام والده الجلدي، عندما يقرأ لوحة "مستشفى ابن سينا" حيث ذهبوا به.

- **اسمك ؟**
- **عصام بدر**
- **عملك ؟**
- **موظف**
- **عمرك ؟**
- **خمسة أعوام.**

يدور الطبيب حوله، متفحصا اياه بعينين واسعتين، ثم يصرخ فجأة :

- **الى الغرفة 37**

فكر : سيخرجونني بعد ساعات، لم أفعل شيئا ,, لكن الليل سرعان ما يقفز من مركبة فضائية بمظلته الكبيرة، فهبط في المدينة و أسرع يتدحرج محتلا الزوايا و الأزقة ثم الشوارع العريضة .

-2

فتح الباب فرآها شقراء جميلة، وجهها عذب و طفولي، مضيء وبريء ... استقبلها بابتسامة صافية ، دخلا الغرفة تحدثا، ضحكا، تبادلا النظرات الصامتة، اقترب منها، أمسك يدها الصغيرة اللطيفة، ارتعشت، كتب اسمه على ساعدها، كتب اسمها، رسم منتزها، وبطا، وأشجارا، ثم نهرا وقاربا، ركب واياها القارب، الى عرض النهر، قلبه.. سقطا في المياه، خرجا ضاحكين يجففان نفسيهما، أحضرا علبة تلوين، انتقل الى اليد الاخرى، كتب اسمها بشكل معكوس، ثم الصق ساعدها على يده، فانطبع الاسم بشكل صحيح.. كان يراقب اختلاجات شفتيها، قبل راحتها فتلوثت شفتاه. قبل وجنتيها فاصطبغ وجهها بألوان عذبة فكر برؤيتها عارية، جذبها اليه، فتمنعت بشدة.. قبل جيدها بنعومة،استسلمت.. زحفت يده واخرجت الثدي الايسر،اطبق بشفتيه على الحلمة. وجد لحمها طريا فتوسد صدرها ونام. تدفق الحليب في فمه ، رضع حتى ارتوى.

استمر الحليب في الاندفاع الى حلقه، تضايق، حاول ابعاد شفتيه ليتنفس، تضخم الثدي، تحول الحليب سيلا جارفا، ضغط الثدي فمه، اغلقت أنفه، كبر حجمه واحتل مجال رؤيته، انتفض طالبا النجاة ..

3- مقاطع من تقرير:

" السيد عصام بدر، ذو نظرة ثعلبية ماكرة .. "

" ..سأكون اكثر حذرا، بدأ يشك بمراقبتي اياه "..

" عصبي المزاج، يتدخل في امور لا تعنيه .. يحب القراءة، ؤيكتب الشعر، ؤيتذوق الرسم."

"قليلا ما يشارك في نقاش جدي ويوحي بأن هناك فكرة (يخاف) قولها".

"..عيناه واسعتان دهشتان، كثير الحركة، والتلفت، يراقب بدقة اثناء سيره، واثناء جلوسه ، وعند تحدثه ".

-4

امسك قضبان حديقة الاطفال، ووضع راسه بينها.. ابتسم بسذاجة، وببلاهة راقب الاولاد.. ومضت في راسه آلاف الاحزمة التي هددته صغيرا.. وانطلقت الصور تحبو في رأسه،مشوهة.. نحتت ضحكته نحتا :

- **لماذا تأخرت يا أستاذ عن المنزل اليوم؟**
- **بابا.. ل.. لق.. لقد.. ل.. لم أتأخر..**
- **وتكذبني يا حيوان، يا ابن ال.. ادخل**

- **لكن.. الاستاذ هو. هو..**
- **اسكت يا(..) قلت لك ألف مرة، فورا الى البيت، فورا الى الدرس.. خذ هذه..**

وهوى النطاق، فرفع ذراعه ليقي رأسه، تغيرت ملامحه، وهو يقلب النظر في الوجوه المرحة المغبرة والضحكات الرنانه تسحبه الى صرخاته الحارة التي تطلب النجدة، لتنقذه من الأكف القاسية.

تسلل بهدوء الى الحديقة، وجلس الى مقعد صغير، ثم راح يراقب حتى اغفى وسرعان ما امتطى (جاده-العصا)، ونهل الازقة معه، ثم ربطه الى عمود كهربائي، ولعب مع رفاقه الصغارلعبة (الاستغماية) و (الشرطي واللصوص) حتى لهث تعبا، فعاد الى حصانه... فوجئ بغيابه فصرخ:

- **اين جوادي ؟**

وراح ينهب الحي راكضا، باحثا عنه..

5- مقاطع من تقرير:
(باستخدامي احدث المخترعات العلمية، استطعت التسلل الى غرفته والانصات حتى لاحلامه..)

حلم رقم 4 بتاريخ ../../...

أمسكني شخصان واقتاداني، حاولت المقاومة لكنني وجدت نفسي ضعيفا ومنهكا، فلم استطع الحفاظ على توازني..

- **ماذا تريدان ؟**

ضحك أحدهما وقال: نريد اللعب معك..

عبس الآخر: سوف نلعب لعبة الفروج المذبوح.

- **لكنني طفل، ألا تريان أني طفل ؟**
- **اسكت والا قدمناك للمحاكمة بتهمة انتحال صفة انسان.**

ولمعت السكين في وجهي، مرهفة حادة.. اقتطعوا رأسي، فتدحرج قليلا، وبت اراقب

من عين واحدة اذ أن الاخرى ملئت بالدماء.. وضع جسدي فوق النار وقلت بعناية، .. لم أشعر بالألم لكنني أحسست بالاختناق وبتكاثف الحزن البشري كله علي، عندما شاهدت الزبون يقتضم لحم جسدي متلذذا، فرحا، فاستيقظت مرتجفا مبللا بالعرق..

حلم رقم (2) بتاريخ ../../...

الصورة ضبابية شفافة، كما شروق الشمس في صبيحة شتائية.. تظهر أخيلة الاطفال ملونة، تتحرك بسرعة و نشاط. زغردت أعماقي لرؤيتهم، فركضت باتجاههم ركضت باتجاههم و المسافة اليهم تزداد.. وقفت بائسا لاهثا.. عاودت الجري نحوهم فجأة احسست بفراغ تحت قدمي.. وانزلقت جسدي وراءها، أردت التشبث بجدران البئر، لكن جدرانه اتسعت على نحو عجيب، نظرت الى الاسفل، .. الرعب بذاته أرضية البئر مليئة بالأفاعي السوداء المنتصبة، تفح منتظرة اياي، لم يخرج الصراخ من حنجرتي، وجف لعابي، هويت بتسارع متواتر..

وبقيت الافاعي بعيدة.. كان منظرها واضحا، لكنني لم أصل اليها.. مددت أذرعي بكل الاتجاهات.. صرخت، ومع خروج الصوت استيقظت..

حلم رقم ... بتاريخ ../../...

القصر فخم مثل قصور الف ليلة وليلة، دخلت اليه وجلا، كان يبدو من الخارج مظلما، لكنني اكتشفت ان اضاءته باهرة وما ان نظرت الى الغرفة الاولى، حتى عرفت انها المكتبة، فجدرانها مليئة بالرفوف التي تنوء بالكتب، الجدران الاربعة مكونة من الكتب.. لكن المفاجأة حدثت عندما انتقلت الى الغرفة الثانية لقد كانت كالاولى.. والثالثة.. والرابعة و.. القصر كله مكتبة، فتحول خوفي الى فرح يخالطه رعب كثيف.. عدت الى البداية، دخلت الغرفة وامسكت الكتب من يسار الباب وبدأت التهمها، كنت التهمها كما الطعام، أضع الورق في فمي واقضم حتى تؤلمني أسناني أو أقطع قطعة، ألوكها بسرعة و أقذفها الى أحشائي، وانتفخ بطني، أنهيت الغرفة، وبدأت بالثانية، صار كرشي يضايقني. فجأة اصطدمت بأحد الرفوف، قتساقطت الكتب، حاولت تفاديها، فارتطمت برف آخر، وثالث،.. و .. غمرتني الكتب، أردت التنفس فلم أستطع..

6- الأم

ظننت اني سأتخلص من صفيحة الماء على كتفي، والاستيقاظ باكرا، وكنس المنزل الترابي، والعجن ولهيب "التنور"

حلمت بصنابر المياه، والحركة القليلة، بالخبز الجاهز، بأرض مكسوة بالبلاط.. حلمت بكل شيء عندما خطبني أبو عصام لأنه يعمل في المدينة، والمدينة كما تحكي نسوة العسكر شيء مختلف.. لكن كل ذلك احترق، فراتبه لا يكفينا، خاصة بعد قدوم عصام، وصار والده عنيفا يغضب بسرعة، يسهر الليالي، وأنا أنتظره، بينما احتضن الصغير و عندما يعود منتفخ العينين، ينهال علينا.

مسكين ولدي، كان يرى بكائي فيبكي، فيهجم عليه والده، عندها أضع جسدي حائلا دونه، لقد أعطيته حياتي، رافقته كل مرحلة من عمره، كنا نلتقي خلسة بعد انفصالي عن زوجي، لم أكن أود أن يغيب عني لحظة، وأخاف عليه من الهواء، أقنعته بعدم الخروج الى الأزقة، لأن الأولاد وسخون قذرون ولأن والده يغضب، أحضرت له ألعابا كثيرة، حطمها بقسوة، كان سريع الملل -حتى مني أنا والدته التي تحبه- لكن سرعان ما يعود الى طفلا صغيرا محببا، ولطيفا.

مرة كان في القرية عند جده وكنت أثرثر مع جاراتي.. لست أدري كيف جاءني صوته، عبر عشرات الكيلومترات، صوتا عذبا ورقيقا فيه ألم وحزن.. كأنه يبكي، قال (ماما)، فعبرتني قشعريرة من الخوف، تلفت حولي، فرأيته عبر الظلمة مستلقيا على فراش القش، والعرق ينز منه، أحسست بغصة قهر، ولم أجرؤ على الكلام، لئلا أتحول الى سخرية، خاصة من زوجي، .. لكن الصوت جاءني مرة أخرى، راجيا بمرارة: (ماما..أنا مريض). قفزت ملتاعة، قلت لوالده:

- **يجب ان تحضر عصام حالا. راقبني بعبوس، ثم تفحص الحاضرين مبتسما ابتسامة سخرية وقال:**
- **ألم تكن بكامل قواها العقلية ؟**

صرخت بألم:

- **انه مريض مريض.. ألا تفهم ؟**

7- تفتيش

سجل عندك في الضبط:

الجدران مكسوة بصور لنساء عاريات الصدور.. صندوق يحوي العاب أطفال.. دب صغير، وقرد أمامه طبل. دراجة يركبها شرطي (رأس الشرطي محطمة). سيارة انتزع منها سائقها، مسننات لالعاب اخرى. نوابض وعملات.. قطع من الطباشير، خزانة حديدية تطفح بالكتب،

شعر، قصة، اقتصاد، علم نفس، و مجلات للاطفال تأخذ حيزا كبيرا (سوبرمان) و (ميكي) (سمير) (أسامة) (الرجل الوطواط) (رافع).

صورة لطفل يشبهه، مكبرة، مهترئة.

عشرات من اللوحات تجسد أطفال وسيمي الملامح..

8- قالت:

يوميا، مساء، في الوقت نفسه.. لمدة شهر تقريبا داوم على المجيء، أراك أذكر المرة الأولى.. دخل، جلس هادئا، مطرقا.. فكرت أنه غر، ضحكت، وسخرت منه في سري صحت به :

- **هيا، هناك غيرك ينتظر، نظر الي بحزن، وأقسم أنه أخافني، أو أثار شفقتي أو، لست أدري ما حدث لي، فقابلت صمته بصمت. رمى النقود وذهب ثم انقطع عدة أيام، عاد بعدها، فكرت (تعلم، ولن يعيد الكرة) لكنه نظر الي وقال:**
- **اتسمحين لي بالجلوس ؟**
- **. . . . .**
- **لن أمكث أكثر من الوقت المعادل لـ .. في المرة الثالثة، اقتربت منه، فأجهش على صدري ثم كشفه، وبدأ يداعب حلمتي، ويمتصها، وهكذا يوميا، مساء، في نفس الوقت.**

9- الأب

كنت أركض حافيا فوق الأشواك الزرقاء القاسية، أقفز من صخرة الى أخرى ناتئة أدوس الحصى الصغير، حاد الحواف، أقطع الدروب الضيقة، أبحث عن غنمة ضائعة، أصد بقرة عن الدخول الى أرض مزروعة، بالأحجار، كنت دقيق الاصابة، وفزت بالمركز الاول دائما عند التصويب على (القاموع).

وفي المساء أجلس وحيدا، أراقب قدمي و أنقيها من الأشواك، وأنتزع بعض الحصى الناعم الذي تغلغل في كعبي المتشققة.. ثم أفكر:

سأتزوج ويعيد ولدي العملية نفسها، ويتزوج ولدي، ويتابع حفيدي الحلقة... لم أكن أحتمل هذا الحط، وتلك الحلقات فصرخت ذات مساء بقوة وحزم: (سأحطمها) .. ثم ذهبت الى المدينة، قلت في نفسي على الأقل سينجو ولدي من بعدي.. حلمت أني سأصنع منه شيئا عظيما، لكنه خيبني استعملت معه كافة الأساليب حتى صار موظفا، لكن، هاهي النهاية المفجعة أمامي، والحقيقة أن والدته هي المسؤولة لأنها دللته

كثيرا، وهي الـ.... سأعود الى القرية، يكفيني، سأعود الى القرية بعد تحطم كل شيء.

10- الزوجة

صحيح أنني كنت أخبر والده عن أخطائه، لكن ذلك من صالحه هو، فمراقبة والده له أفادته كثيرا فصار من الأوائل في المدرسة، بالرغم من أنني رأيته يقرأ كتبا غير مدرسية.. راقبته في خلواته، وأبدى مللا من مراقبتي، لكنني كنت أحرص على صحته، فقد كان (يفعلها) عند انفراده بنفسه.

11- مقتطفات من

مذكرات السيد عصام بدر

"صفحاتي العزيزات: لقد خدعوني بدوت ساذجا وغبيا، فخدعوني بكل سهولة بالرغم من المظهر الذي أضيفه على نفسي أمامك، فأكون ذكيا ونشيطا، أناقش كل الأمور، بالرغم من ذلك خدعت.

فلقد استطعت الفوز بحضور حفلة سينمائية وكانت الصالة لا تتسع لصرصار، مقعدي مريح، فجأة اقترب أحدهم وقال لي:

- قم لأصلح لك كرسيك.

وبكل غباء، كأنني نومت مغناطيسيا، تحركت مبتعدا له عن الكرسي، واذ به يجلس عليه دون عناء، انتظرت قليلا لكنه لم يتحرك فقلت:

- أريد الجلوس.

نظر الى وجهي و ابتسم، ثم أشار الى حضنه، وقال:

- اجلس هنا

وفعلا ببراءة، بسذاجة، جلست، وسرعان ما طلب من بائع (البوظة) قطعة أعطاني اياها، لكنني أحسست بخطر يتهددني.. فقمت واقتعدت الأرض، والدموع تملأ عيني".

(مدرس الفيزياء مريض، وقررنا زيارته أثناء انصرافنا الى المنزل، فتأخرنا قليلا، لذا يا مذكراتي العزيزة، ترتجف.. ترتجف أصابعي الآن، فلقد انفجر منزلنا في وجهي، والتجأ اخوتي الى بيوت الجيران هربا بينما بقيت أنا تحت رحمة الحزام الذي لا يرحم).

"منظر النطاق على الخصر يميتني رعبا، فكيف بمنظره في اليد؟"

"جاراتنا جميلات، وزوجة والدي جميلة وناضجة لكنني أكرههن.. بل أحبهن، ان جاراتي يحاولن التسرية عني، حتى أحدثهن في الحي ؟، هاهي تبتسم لي كأنها تناديني، سوف أزورها في الليل، وأريها جسدي عاريا، لابد أنها ستمد يدها تلمسني قطعة قطعة، وسأرتعش لملمس أصابعها الناعمة، ثم تقرب صدرها مني، فأشمه بحساسية مفرطة.. و..".

"حاولت اليوم التدرب على لعبة (الحجلة)، أحضرت مسطرة ورسمت المربعات بالطباشير على الأرض.. لم تنجح فالخطوط اللينة والزوايا المنكسرة التي يرسمها الأطفال أجمل.

هذه الرسمة حادة الزوايا، مستقيمة الخطوط، كأنها حواف سكين مرهفة.. سأرسم شكلا أروع من أشكالهم..."

12- ما حدث من قليل:
الشمس كرة مطاطية.. والأطفال حياة متكاملة..

سار في الشوارع يدندن أغنية عذبة، كاد يقع من حافة الرصيف، فتداعت الى ذهنه كيف يرميه والده عن حضن أمه، ويصرخ فيها: (لقد صار كبيرا، ولازلت ترضعينه منك، اشتري له حليبا). كان منهمكا، وعيناه غائمتان، بينما يخامره احساس بأن جسده متحرر وخفيف، لدرجة لم يعد يستطيع السيطرة عليه.. و عن بعد بدت له الأزهار تقفز فوق الخطوط و عبر المربعات... اقترب منهم وراح يراقبهم بعينين زائغتين. امتدت يده الراعشة الى الحجر الصغير، ثم رماه الى المربع الثالث.. رفع قدمه، وقفز على الأخرى عبر المربعات، قذف الحجر قليلا، وتنهد بعمق، عندما انتقلت الى المربع التالي بحذر شديد، قفز متابعا اياها..

- انتظر، انه يلعب مثل الأولاد

و انطلقت الصيحات الحادة:

- يا (عيبو) يلعب مثل الأولاد...

يا....

وانفجرت الشمس....

الأعور

-1-

- تحركت شفتاه دون أن تنطقا، ارتجفت قسماته، والتصقت على وجهه ابتسامة صفراء، تشوبها حمرة خفيفة، ثم زحفت الى عينه الوحيدة كل أنواع الحقد، صرخت فيه لاهثا:

- أعور

فجأة عقدت محكمة ميدانية، زججت بعدها في السجن حتى أرفع يدي وأتوب عن أعمالي هذه...

-2-

- تحلق السجناء حولي محاولين رؤية الشوارع والأزقة والعمارات من خلال عيني وأرادوا تنسم رائحة الحرية خارج القضبان وانهمرت علي الأسئلة.

كانت الابتسامات تعمر الوجوه المعذبة النحيفة، حادة التقاسيم، وسئلت فجأة عن سبب سجني، فأجبت:

- **لأنني قلت لأعور (أنت أعور).**

عندها انسحبت الابتسامات رويدا رويدا، وابتعدت الوجوه ببطء، ثم تحولت حالا الى فأر بين مجموعة من القطط، وصار سجني مضاعفا، سجين في سجن داخل السجن، شيء مضحك، أليس كذلك؟

-3-

أطلق سراحي بعد مدة، ولم أستطع الا أن أقول للمشوه: مشوه، فعدت من جديد الى السجن، ثم أطلق سراحي، لأعتقل بعد أيام.

-4-

"مجنون" هكذا قالوها، وتركوني حرا أفعل ما أريد:

- **مجنون و كفى، وسرت في الشوارع الخاوية البعيدة عن مركز المدينة، أصبحت مخيفا كالمسخ، صار أصدقائي يبتعدون عن طريقي، و الأعداء يسخرون ضاحكين من حالتي، وكانت حياة المنبوذين أفضل من حياتي، وكدت أيأس فأنتحر، ولكن، ألا يوجد أشخاص لا يخافون من لقب "مجنون" ؟ .**

-5-

- "نشرة الآخبار"

سيداتي سادتي، نفيدكم علما ، أن عدد المجانين في مدينتنا بدأ يزداد باطراد، لذا نرجو مقاطعتهم، لأننا سنعمد الى حجزهم، باعتبار هذا المرض معديا على ما يبدو ... .. .

مقتل
السيد عصام بدر

- * غادر الفتى أنور... منزل والديه بتاريخ 1975/11/5 و لم يعد فـالرجـاء ممن يعلم عنه شيئا الاتصال بأقرب مخفر شرطة.
  الثورة 1975/11/8

** "جلال جمعة مشينش 12 سنة، غادر منزل والده يوم الأحد 1976/2/13 ولم يعد ....
يرجى ممن يعلم عنه شيئا الاتصال بأقرب مخفر شرطة"
البعث 1976/2/20

*** الاسـم : فـؤاد . ي . ن
اللباس: بذة مدرسة بلون أخضر
الأوصاف: شلل في رجله اليسرى
عمره 12 سنة فقد يوم الثلاثاء

في 1977/2/8 يرجى ممن يعلم
عنه شيئا الاتصال بالهاتف /...../
البعث 1977/2/13

في الصف الرابع الابتدائي حاول رجل اغتصابي ...

"أحقد على والدي وأكرهه.."
"أكره المجتمع وأحب الوحدة.."

- من أقوال عصام بدر - مجلة جيش الشعب – أذار 1977

- سنذهب الى السينما
- نركب الباص؟!
- بسرعة.
- أي سينما ؟؟
- سينما "بالميرا" انها تعرض فيلمين دفعة واحدة، الأول "ماشيستي وهرقل الأسود"

والثاني "جيمس بوند في الصين"

- معي عشر ليرات، أعطاني اياها والدي للعيد.
- وأنا أيضا..

قال عصام بدر ؛ وأنا كذلك.

بينما امتدت يده تتحسس الليرة الوحيدة في جيب بنطاله الذي لا لون له.

وثب الثلاثة الى الباص، جلسوا يراقبون المطر مقابل النافذة، ومجموعات من الأولاد تتوزع حول الأراجيح.

- عندما نرجع، سنركب الأرجوحة.
- ونأخذ البوظة...
- أنا سأشرب الكازوز.

بدأت المنازل الطينية تقل، وتحل محلها تدريجيا أبنية حديثة جميلة، ازدادت البيوت العالية تراصا وجمالا وشموخا، اخترقتها شوارع نظيفة، احتشد الناس على جانبيها مسرعين، متباطئين، ينظرون أمامهم أو على جوانبهم... التمعت قضبان خط القطار تحت أشعة الشمس، فتداعت الى خاطر عصام صورة ليلية متكررة.. والده وأمه في الغرفة الوحيدة، على السرير، وهو على الأرض ينام بجانب اخوته فوق فراش رقيق، تثير انتباهه

حركة من جهتهما، ينظر حيث تسقط أشعة القمر فتشكل خطا لامعا دقيقا على أطراف جسديهما، همسات غامضة، فحيح متألم، يبدو الأب وكأنه يطعنها في الوسط، تنتفض، تند عنها آهة ألم متلذذة، والده يعض جسدها، يؤلمها يضربها، يكاد يصرخ، لكنه تذكر أول مرة رآهما هكذا، ليلتها بكى، فضربه والده، نزل اليه وصفعه، ثم أمره بالنوم، صار بعدها ينتظر ما يحدث ليليا ويبكي بصمت..

- **آخر موقف..**

تملص الأولاد الثلاثة، و انطلقوا عدوا باتجاه السينما، كانت الأجساد تتزاحم والكتلة تتماوج كسطح البحر، توزع باعة المرطبات والكعك حول الحشد أمسك الثلاثة أيدي بعضهم بشدة، انخرطوا ضمن الأجسام المتزاحمة، انزلقت الأصابع الصغيرة عن بعضها، حاولوا الحفاظ على سلسلتهم، مالت الكتلة نحو الخلف، ثم للأمام، انفرط العقد الصغير، أحس عصام بضيق في صدره، وأنه بحاجة للهواء، بدأ الحشد يدفعه نحو الخلف رفع فمه نحو الأعلى يستنشق الهواء صرخ:

"أحمد، أحمد... نديم، يا نديم..."

بلغ أذنه صوت "يا عصام تعال الينا" التفت حوله، كان على حافة الرصيف، شعر باندفاع القيء الى حلقه، بحث بعينيه الصغيرتين عنهما، ناداهما، لم يجب أحد...

- **عم تبحث ؟..**
- **عن أحمد ونديم.**

تفحصه الشاب قليلا، ثم التفت الى نهاية الشارع وقال:

- **رأيتهما يبحثان عنك، ذهبا من هنا.**
- **. . . ؟**
- **تعال أرشدك اليهما.**

أمسك ذراعه، سارا في شارع فرعي، تبعهما آخر.. عبروا زقاقا، اتجهوا نحو بناء ضخم، توقف عصام متسائلا: (. . . ؟ . . . ؟).

الشمس تسقط عمودية فوق الرؤوس.

- **لا. . شكرا سأعود الى البيت.**
- **لكنني متأكد . . انهما هنا.**

خاف عصام، اتجه ليعود، تصلبت الأصابع حول ذراعه، أدرك أنه في خطر. . .

- **اتركوني. .**
- **الى أين ؟ . .**

صارت اليد حول ذراعه فولاذا . .

- **الى البيت . .**
- **ليس قبل أن ترى صديقيك.**
- **لا . .**
- **تعال . . . أدخل. .**

دفعه بقسوة، صرخ، شاهد رجلا يمر. . . صرخ ثانية :

- **يا عم . . أرجوك . . خلصني أرجوك . .**
- **ماذا تريدون منه ؟ .. أتركوه.**
- **عجيب أمره، طلب مني أن أدله على مكان زميليه . . !!**
- **لا. . أرجوك يا عم . . انهم يريدون ضربي**

تلألأت في عينيه الدموع.

- **اتركوه . . تعال معي .**

قفز عصام الى الباص مرتاحا، جلس يراقب الوجوه باحثا بلهفة عن أحمد ونديم، أين ذهبا؟ . . هل ضربهما الشباب. . ؟ ذهبا معهما، دخلا البناء، أخذوا نقودهما، مزقوا ثيابهما. . هز رأسه مبعدا الصور عن ذهنه، تلهى بمنظر طفل ينام وادعا في حضن أمه، تحسس نصف الليرة الباقية في بنطاله الذي لا لون له، نزل من الباص في حيهم، شرب الكازوز، ركب الارجوحة، تلاشت الليرة لاحقت دوران الارجوحة، استمع الى الأخاني المرحة التي تخرج من الأفواه الصغيرة انسحب الى الظل، مر شاب والى جانبه فتاة، برقت في ذهنه صورة والديه على الفراش. .

- **عصام ؟ . . .**

ناداه والده، لم يجب، يعرف أن عليه أن يكون نائما. .

مرة أجاب بصوت واضح. .

- **نعم . . ماذا تريد ؟**

لقي جزاءه . . أيها الخنزير، لم تنم بعد، تتنصت علينا، هه. . نم، أرسل الله لك عزرائيل، وتخيل عزرائيل مخلوقا ضخم الجثة، له نابان طويلان، يجازي الأطفال الذين لا ينامون ليلا، و الذين يراقبون أهلهم في خلواتهم.

-2-

"أكره والدي و أحقد عليه بشدة،

ولو قيل لي مات لحرقته بالكاز،

ولو شاهدته الآن وبيدي سكين

لقتلته فورا"

"المجتمع مليء بالمشاكل والظلم

والروتين".

من أقوال عصام بدر لمجلة (الفرسان)

آذار 1977

- **عاد الى الغرفة والشمس تصفعه في وجهه، الباب مغلق فطرقه. .**
- **من ؟**
- **أنا. .**

جاء صوت والده غاضبا محذؤا اياه.

- **اذهب من هنا، هيا العب مع الأولاد.**

جلس أمام الباب، حاول سماع كلماتها، لم يصل اليه الا ضجيج مبهم. . البارحة ذبحوا سلوى، ركض أخوها وراءها، طعنها بالسكين أربع طعنات، ونزفت الدماء على التراب، فتشكلت بقعاحمراء قاتمة، تركوها مكانها، ودهنوا بعض الجدران من دمها، قالوا: لتعتبر البقية. . وقالوا: انها ذهبت مع شاب الى غرفته، لماذا لا يذبحون أمه، انها تبقى في فراش والده، فتح الباب، خرج والده متعرقا، أسود وجهه. . .

- **أنت هنا أيها اللعين. .**

تغيرت ملامح وجهه، أمسك به من ذراعه ودفعه، سقط أرضا. .

- اغرب عن وجهي، لص، ..أين الليرة التي سرقتها؟ هه؟

طأطأ رأسه، ركض الى حضن أمه، أشاحت وجهها عنه، أمسكت الصغير لترضعه، اختبأ عصام وراء ظهرها، . . في النهار تتفرغ لأخيه الصغير، تغسله، ترضعه من نهدها المتهدل، تنظر اليه نظرة جامدة لا معنى لها. . كثيرا ما لاحظ ازرقاقا في صدرها، يعرف أنها مع والده، سألها مرة: ما هذا.. أجابته"عضني أخوك الصغير" وأخوه الصغير ليس له أسنان. . . وصل اليه والده ممسكا بعصا غليظة أنقذه خاله الذي وصل فجأة، كم يحب خاله، انه لا يضرب، لايصرخ، لايحتج، كم يتمنى أن يستلقي في صدر خاله الواسع وينام، حاول مرة النوم على ساق والده انتفض، ضربه، أبعده عنه،"لا ينقصنا الا أن نتحول الى مخدات في آخر هذا العمر"، وعندما يحضر خاله فانه يجلس بقربه، يفكر في النوم على فخذه، لكنه يخاف، نظرات والده ترعبه، عندما يغضب تبدو عيناه عميقتين، كالحتين، تصدر عنهما اهتزازات غامضة تخدره، تمتص قوته، فيجري هاربا باحثا عن زاوية ظليلة في حيهم الطيني.

-3-

"ترتفع عندنا نسبة الأمية الى

أكثر من 82%".

من مجلة " جيل الثورة

نيسان 1976".

"عملت في الملاهي والمقاهي

وكنت دوما بعد خروجي من

الملهى أشرب الخمر"

عصام بدر جريدة تشرين

1977/3/11

الأب: استغنوا عن خدماتي

الخال: مرة ثانية؟

- **انتهت الورشة من العمل**
- **. . .**
- **والآن؟ أليس حولك من يحتاجني لا أستطيع البقاء بدون عمل. . دزينة من الكلاب ورائي تريد الأكل.**

الأم: عندما يتعطل عن العمل، يخلق طفلا، وما أكثر ما يتعطل عن عمله.

- **مردود أحمد عند -الحداد- لا يكفي مصروفه.**
- **غدا يكبرون، ويبحثون عن زوجاتهم.**
- **خرج ثلاثة منهم من المدرسة.**
- **. . .**
- **سيبيع عصام البوظة.**
- **ويترك المدرسة أيضا. . ؟**
- **نريد الأكل، اذا كلن ذكيا فليدرس ويبيع معا.**
- **. . .**
- **مضى علي وقت طويل لم أعمل، خنقتني الديون. . . .**
- **. . .**
- **سأسافر الى الكويت، لابد أن أجد شيئا هناك.**
- **. . !! . . –**
- **. . ؟ ؟ . . .**

-4-

*** "دا. . دا. . دا "**

"با. . با. . بابا"

"ما. . ما. . ماما"

من كتاب القراءة الصف الأول الابتدائي".

**** " الضبع حيوان مفترس"**

"الذئب يشبه الكلب"

"مقتطفات من كتاب العلوم للصف الثالث

الابتدائي"

**** " استيقظ أحمد باكرا، فغسل وجهه، ولبس ثيابه النظيفة، ثم انطلق الى المدرسة بعد أن رتب كتبه في حقيبته الجلدية الجميلة، انه اليوم الأخير في المدرسة، سيحضر الآن نتيجته، ويطالب والده بالهدية التي وعده بها عند نجاحه لقد تعلم القراءة و الكتابة، وحفظ دروسه كليا غيبا، لذلك يستطيع أن يقول لوالده: اشتر لي دراجة لأركب عليها في الصيف و أعدك أنني لن أبتعد عن المنزل بها، وانني سأنجح دوما".**

"كتاب القراءة للصف السادس الابتدائي"

**** "ونقدم الآن مقتطفات من موضوع (تعبير) كتبه طالب في الصف الثاني الاعدادي حول رجل فقير"**

"كان الرجل فقيرا، وأولاده فقراء يغتسلون كثيرا، منزلهم كان يحتوي على براد فقير، وغسالة فقيرة، وتلفزيون فقير أيضا، أما سيارتهم التي يتنزهون بها ويذهبون الى الغوطة وبلودان فكانت عتيقة، تتعطل كثيرا، ومع هذا فقد ظلوا يركبون بها ويزورون عين الخضراء، أو غيرها، ويجلسون في أماكن فقيرة. ."

-5-

انبطح عصام بدر على أرض غرفتهم، أمسك الكتاب، برز له المعلم يحمل بيده العصا الأنيقة وقد ظهرت الجمجمة المرسومة عليها واضحة، زعق. .

- ألف مرة قلت لك هذه "يحرث. . يحرث. . يحرث" ولا زلت تخطيء بقراءتها...ماذا يحوي هذا الرأس. . ؟

ونحره على دماغه بالعصا. .

- اكتب الكلمة ألف مرة. . هل فهمت؟

وكتب "يحرث، يحرث، يحرث. . بحرت، حيرت، رحت، ينحر، . . " اختلطت الحروف بعينيه، يريد أن يتبول، شعر بضعف شديد، طول النهار وهو يصيح على (البوظا) ويمط الكلمة متفننا في نطقها. . تمطى، ألقى رأسه على الأرض، حرك وسطه، داهمه الشعور

باللذة، تحرك ثانية بقوة، اخترقه احساس بألم مشوب بلذة خفق لها قلبه، أراد أن يمد يده الى (وسطه).

- عيب. . عيب. .

تذكر هذه الكلمة، جاءته من بعد ساحق، . . رفع وسطه وضغط بكل ما يملك من

قوة، وكأن سكينا اقتطعت جزءا منه، ندت عنه آهة، كتمها خوفا " أمي في الخارج، والدي يعمل على السفر، كان الألم شديدا، أكثر من أن يطاق، مد يده يتحسس موضع الألم، أخرجها، نظراليها، أصيب بالذعر، نز العرق من جبينه، تلوث بنطاله بالدم، لقد جرح نفسه.

- من أين الدم يا لعين. . ؟ ماذا فعلت بنفسك أيها الـ . . كيف سأخبر والدك؟ كيف

ستذهب الى المدرسة ببنطال ملوث بالدماء؟ . . قذر . . قذر . . خذ هذه . . خذ ، وتمنى ساعتها لو كان فتاة لا يملك هذه الزائدة اللحمية المميتة.

-6-

وتنشر جريدة " الثورة "

"لقاء مع السيد عصام بدر

بتاريخ 1977/3/7

قال فيه:

عندما كنت صغيرا قال لي رفيق يزيدني بعامين أنه يراقب والديه ليلا،

وقال:انهما يضمان بعضهما و ينسيان ما حولهما؟ يتعرقان، يلهثان، ثم يسترخيان وينامان بعد لحظة توتر شديد وانهما يعيدان ذلك ليليا. .

قلت: انه يضربها.

فضحك مني وقال: أنت غبي، لا تفهم انهما يشعران بلذة فائقة.

طيلة الوقت كنت أحس أن قلبي ينقبض على فترات منقطعة، عندما أذكرهما معا. . هذا ما جعل والدتيتقلب في فراشها وحيدة اذن؟ . .

لقد سافر والدي، انها تنتظره، تريده، ترغب لوجوده.

قال رفيقي: تعال معي. .

- **الى أين. . ؟**

غمز بعينه: سأعلمك كيف يفعلانها.

انقبض قلبي، فقدت القدرة على الكلام، ترددت.

- **لكن. . لكن. . هذا عيب، قد يرونا**
- **لا تخف لن يرانا أحد. . الغوطة واسعة وأعرف مكانا مستورا هناك.**

"انطلقت معه الى البساتين و الأشجار. ."

لا أزال أذكر جيدا أنني يومها، عندما كنت عاريا على الأرض، انغرز عود جاف في صدري فجرحني ونزفت الدماء كثيرا. . "

-7-

"غادر الفتى أنور منزل والديه

13 سنة بتاريخ 1975/11/5

ولم يعد فالرجاء ممن يعلم عنه

شيئا الاتصال بأقرب مخفر شرطة"

الثورة 1975/11/8

بدأ عرض الفيلم، شمل الظلام الأجساد المبعثرة في الصالة، شدت الصور المتحركة الملونة الأبصار نحوها، العري، القبلات اللاهبة، الرقص المثير، أحس عصام بدر بانقباض من جديد في قلبه ورأى نفسه في الغوطة مع رفيقه الذي يزيده عامان، المكان بعيد عن الأنظار، الجسد ناعم غض، الأرض قاسية، اختراق، قبلة على الجسد، العنق، الشعر، مشدود بقسوة، الظهر ناصع، ارتعاش.. لذة..جرح، دم، ألم. . داهم عصام الصداع، تحسس جسمه، زحفت أصابعه الى صدره، الى . . تململ في مقعده ونظر الى جاره الصغير.

- **مرحبا أحمد، كيف الصحة. . ؟**

أين لم نرك طيلة هذه الفترة. . ؟

التفت الصغير الى محدثه، فوجده بشوش الوجه، تنفرج شفتاه عن ابتسامة مهذبة وصوت ذي نبرات تنبض بالحنان.

أجاب الصغير: أنا لست أحمد.. اسمي أنور.

وبسرعة بادر عصام ليقول: عفوا. . لا تؤاخذني، أنت تعرف الظلمة، ثم انك تشبه صديقي أحمد كثيرا، انه لطيف. . .

مرت لحظة صمت، سارع عصام فقدم لأنور قليلا من الموالح.

- **تفضل. . .**
- **لا. . . شكرا**
- **تفضل. . لا تخجلني، لتكن عربون التعارف، اسمي جمال. .**
- **. . . . .**
- **ألا زلت في المدرسة؟**
- **نعم**
- **أراك هاربا منها؟!**
- **الدروس مملة، ومعلمنا صعب.**
- **أنا تركت المدرسة، انني أتعلم مهنة و النقود معي باستمرار.**
- **. . . .**
- **هل تحتاج لنقود، أستطيع أن أعطيك، شعر عصام أنه تسرع بالكلام، عاود يقول بهدوء.**
- **انني أعمل، ولست بحاجة للنقود. .**
- **أتمنى لو أتعلم مهنة حرة. .**
- **مثلا**
- **الخياطة. .**
- **يا للمصادفة، انني خياط عند والدي، ..أستطيع أن اقنعه بتعليمك، لكن على شرط أن تخبر والديك، أنت تعرف أن هذا واجب. .**
- **صحيح؟! سأحاول اقناعهم.**
- **اذن سأدلك على محلنا لتأتي وتخبرنا عندما تريد ذلك.**
- **. . .**
- **هيا بنا**

وصعد أنور وراء عصام مطمئنا على درج عمارة تبنى حديثا، وما أن وصلا الى السطح حتى تلفت أنور حوله فلم يجد سوى غرفة مهجورة، آنذاك خفق قلبه الصغير، ازدادت ضرباته، اكتشف أنه في مأزق، وأنه أخطأ بالمجيء الى هنا، التفت نحو رفيقه.. شاهد بريقا وحشيا ينطلق من عيني عصام، الذي كان يتخيل سلوى المذبوحة، ودماءها التي تلوث الجدران عبرة للآخرين، كان يتذكر عندما ضغط وسطه على الأرض بقسوة فنزفت الدماء، انتضى سكينه وقال بصوت ساخر :

- اخلع ثيابك

فقد أنور القدرة على الكلام، تعتع. .

- أ. . أر. . أريد الذهاب.
- اخلع ثيابك

اللهجة قاطعة، السكين تقترب، تبرق، تتوهج، .. طار زوج من الحمام مبتعدا، هبطت الأرض بسرعة و انقلبت.

***نشرت جريدة تشرين في يوم**

1975/11/7 هذا المقطع:

"جريمة بشعة. . اعتدى أحدهم على المراهق أنور. . ومارس معه الفعل الشنيع ثم حاول خنقه، وطعنه عدة طعنات في جسده، لكن الله شاء للطفل أن يعيش ورجال الأمن تبحث عن الفاعل بجدية".

-8-

*** "أخبر سكان عمارة (دخولي وصلاحي) رجال الأمن**

بوجود جثة عارية لفتى مخنوق ومطعون عدة طعنات

بسكين حادة . . .

هذه الجريمة الشنعاء تذكرنا بالفعلة التي حدثت منذ

ما يقارب الثلاثة أشهر . . . وهذا يضعنا أمام مجرم

سادي منحرف جنسيا وطليق يفتش عن ضحية ثالثة."

البعث في 1976/2/4

**** قال لي عصام في مقابلة شخصية معه بتاريخ 1977/3/12 .**

"كلمت نفسي كثيرا، توقف يا عصام، اهدأ، انهم وراءك، لابد سيمسكون بك، لكن ما حدث هو أن كل مرة كنت أعد نفسي أنها الأخيرة، . . ومع هذا . . الأمور لم تستقم. .

كنت أدفع دفعا، أساق مجبورا الى. .

لا أدري. . كم مرة حدثت نفسي لو كنت امرأة لما حدث معي من هذا شيء".

كانت ضحيته الثالثة قد وجدت بتاريخ 1977/2/8 في بناء يشاد حديثا في منطقة البرامكة، وقد نشرت الثورة ذلك الخبر وقتها قائلة:

"اسمه فؤاد وعمره توقف عند الثالثة عشر ربيعا حين ضغط قاتل سادي بأصابعه الوحشية على رقبته الغضة فخنقه".

-9-

"أجهزة الأمن تلقي القبض على مجرم خطير

يختطف الأطفال ويقتلهم."

"دمشق- سانا- تمكنت أجهزة الأمن أول أمس من القاء القبض على المجرم (عصام بدر) من مواليد 1958 لقيامه بخطف عدد من الأطفال وقتلهم بعد ممارسة العمل المنافي للحشمة معهم، ولقد القي القبض على المجرم بالاعتماد على الأوصاف التي أعطاها الطفل أنور، الذي نجا من القتل بأعجوبة. . هذا وقد اعترف المجرم بكافة أفعاله الشنيعة، وأكد المصدر أن المجرم سيحال الى القضاء فورا لينال جزاءه العادل".

الضياء يبهره، الظلام حالك، تناوب الضوء والظلام، آلمته عيناه،صداع، سلوى تركض برأس مذبوحة، الجدران تلطخ بالدماء، ابتعد يا خنزير، تراقبنا، اسقني كأس من الماء. . انقبض قلبه، تعال سوف ندلك أين هم صديقاك، دخلا هذه العمارة. . هل تعرف كيف يتزوج والداك؟ تعال سأدلك، غصن شجرة، صدر مجروح، دماء. . دماء. . يجتمع الأبيض و الأسود،تسيل خطوط حمراء، تكبر الخطوط، تصير حبالا. . تذهب الألوان، الأحمر، الدم. .

الدم. . آه. . آ. . ه. . اتركوني. . خنجر يتسلل نحوه، ثلاثة أطفال يحملون الخناجر، يقتربون، يقتربون، الخناجر ترتفع، تنزل ببطء، تكبر، تكبر، آه، عيني. . عيني.

-10-

تنفيذ حكم الاعدام بقاتل الأولاد "نفذ حكم الاعدام بالقاتل المدعو عصام بدر الذي ارتكب سلسلة جرائم اغتصاب وقتل، ذهب ضحيتها أربعة أولاد قاصرين غرر بهم واستدرجهم من دور السينما الى أمكنة مهجورة، وطعنهم بخنجر عند ممارسة الفعل الشنيع معهم . . .

تشرين 1977/3/18

-11-

*** "غادر الطفل باسم حسن منزل والديه منذ يومين ولم يعد، فنرجو ممن يعثر عليه الاتصال بأقرب مخفر للشرطة"**

البعث 1977/4/10

**** "الطفل طاهر صالح مفقود. . عمره أحد عشر عاما شعره أشقر..نحيف الجسم يلبس قميصا أحمر، وبنطالا أزرق، لمن يجده مكافأة قدرها ألف ليرة"**

الثورة 1977/6/29

***** زرت السينما(...)، بتاريخ 1977/7/5**

قرأت عنوان الفيلم "ماشيستي في أرض

العمالقة" وفيلم آخر "الذئاب الشرسة"،

دخلت، أطبقت العتمة علي، أمامي يجلس

اثنان، همس الكبير بأذن الصغير، تكلما

قليلا، خرج الكبير، تبعه الصغير."

****** "شوهد طفل مشوه بشكل بشع،**

عاري الجسد، في حي الزفتية

وقد قال الطبيب الشرعي أنه قد

مورس معه الفعل الجنسي الشاذ.

تشرين 1977/7/20

. . . . "؟ ؟ ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . ".

". . . " 1979/1/1 – 1980

1981- ؟ ؟ ؟

هامش استثنائي

من سيرة السيد عصام بدر

انه يعرف الآن كل شيء، حتى التفاصيل، بلى، لقد عاشها يوما بيوم لحظة بلحظة، وها هم يتقدون أمامه بوضوح لا مثيل له، أبطال عظيمون أبطال تافهون، . .لا. . التافهون ليسو أبطالا، فما الذي جعل السيد (. .) صاحب المطعم الشهير بطلا؟ . . ثمة هوة واسعة وعميقة بينه وبين "أبو علي".

(أعرف أبا علي جيدا، فما يزال طعم الفلافل يملأ فمي،

وماتزال حركته الدائبة الرشيقة تملأ عيني، وصوته

الرنان يهتز في أرجاء مطعمه، . ..وسأنقل لكم على

الورق كل اللحظات الصادقة، مبتدئا من قريتي النائية،

مارا بأبي علي، وحبيبتي العاملة في مصنع النسيج،

ثم أنتهي معهما)

وهاهو يخترق شوارع دمشق مقتربا من مطعمه المعهود، بينما عيناه تقرآن اللافتات بسرعة حتى استقرتا أخيرا.

- **سندويشة فلافل أبو علي**
- **يا أهلا بالحبيب. . على عيني.**

وينظف أبو علي الطاولة بهدوء،وهو يتمتم. .

- **ألم تنشر شيئا يا أستاذ. . ؟**
- **أفهمك يا أبو علي !!**
- **والله لا أقصد، أعرفك جيدا، فأنت لم تطلب مرطبات، وهذا يعني . . .**

- سيقوم لعابي بالمهمة نفسها. .
- الجو حار أليس كذلك؟ . .

(سيكون الجو حارا في روايتي أيضا. . . أحيانا أتساءل: ما الفائدة من كتابتها، مادام مصيرها سيكون كمصير غيرها اللواتي ينتظرن في مصنفات المحررين الأدبيين)

خرج مسرعا ملوحا بيديه الفارغتين، واتجه ناحية موقف الباص.

(ستكون خارجة من المعمل فنلتقي عند الجسر، ونركب الباص نفسه: المخيم. . . أحدثها بأمر روايتي الجديدة، وأنها ستكون البطلة، ستفرح كما تعمل كل مرة تسمع بشروعي في الكتابة، تتعرج الأزقة وتضيق، تهمس لي: "سيأتي يوم تتوقف فيه الرقابة على كتاباتك... الى اللقاء" تدلف الى منزلها الطيني، وأتابع الى غرفتي الرطبة، وفي روايتي أكتب ما حدث).

- عصام

التفت خلفه، الى جانبيه، حدق أمامه، لا أحد.

- يا عصام، هنا.

لاحظ سيارة فخمة، تقف عبر الشارع. . الوجه مألوف، أنه يدعوه

- أدخل
- من ؟ أحمد!!
- ادخل يا رجل. .

جلس في المقعد، غاص القماش تحته، (أنا ثقيل) أسند يديه على جانبيه (يا للنعومة) مرة ركب الى جانبها، اصطدمت كفه بفستانها(طعم خاص) كانت تبتسم، حاول ثانية أن تلمس أصابعه ساعدها (أنه أروع) .

- هه . . عصام، كيف حالك؟

(سأتأخر عنها، يجب أن أذهب، . . في مرحلة

الاعجاب بالنظر تأخرت مرة بسبب المرض، فرأيتها في اليوم التالي تتلفت حولها بلهفة فرأتني، استقرت نظراتها علي، ثم ابتسمت.. يومها جلست بقربها وهمست: (أحبك)

- **أنت متعب .**

(هذه اللهجة الحيادية في كلامه كم أكرهها)

- **لماذا لا نراك؟ انني اتابع كتاباتك جيدا، لكنني لم أقرأ لك شيئا منذ مدة طويلة؟. .**

أتوقفت عن الكتابة؟ ماذا تعمل؟ . . أقصد ماذا تشتغل؟ . .

(ماهذا الاهتمام المفاجيء؟ . . يعرف موقفي منه

ومن أمثاله، هاهي لهجته تتغير، تبدو قريبة،

لكنها حيادية، هادئة، واثقة، . . ثم من أوحى له

أنني توقفت عن الكتابة؟)

- **أرجوك أود النزول هنا**

(يميل الباص، فيرتطم ساعدي بساعدها، وأشعر بهجمة الحر، فأحملها من الباص، وأسير بها طفلا صغيرا، ثم أتساقط واياها مطرا فوق المعامل والحقول)

- **لا. . لن اسمح لك بالنزول. . سأعرفك على مكتبي، وستزورني حتما. . لم تجبني: هل توقفت عن الكتابة؟ . .**
- **الحقيقة. . أنه. .**
- **فهمت، فهمت، لهجتك القاسية لا تعجبهم؟ . .**

توقفت السيارة، نزلا، الباب الواسع. . غرفة مستطيلة. . مكتب فخم مقاعد وثيرة

"يا للنعومة" مرة ثانية (أنا ثقيل)

- **سأساعدك، لاتخف، لي طرقي الخاصة، ثق انني معك، لن نفقد أديبا عظيما بسهولة..**

(انه معي؟ . . منذ مدة لم يقرأ لي؟ .. متى كان يهتم بالقراءة ؟)

- **أنت تتساءل عني، لا تشغل بالك، اطلب أية مساعدة، أنا في خدمتك يجب أن تحضر ثانية**
- **شكرا**

كتب ضخمة تتربع ضمن مكتبة رائعة (أنا واثق من أن أيا منها لم يفتح) نظرة مدققة تتفحصه.

- **أين تسكن؟ . . .**
- **المخيم.**
- **يا للجو. . كيف تستطيع الكتابة في أجواء كهذه، يجب أن أؤمن لك مكانا مريحا.**
  (منذ شهر و أنا أبحث عن عمل، أي عمل، سأقول له. . .)
- **انني أحب رطوبة الأحياء الشعبية.**
- **آه . . فهمت .**
  القهوة منعشة.
- **أنت متعب.**
- **ساقي تؤلمني.**
  (لن أطلب منه عملا، لن أتوسل اليه)
- **في الزيارة القادمة سأعرضك على دكتور، اتصل بي قبل حضورك، أريد التفرغ لك، عيب علينا أن نفقد كاتبا مثلك. .**
  (يجب أن أناقشها بادخال شخصية أحمد الى روايتي، ان وجوده هام جدا).

امتدت يده للوداع (يد ناعمة ملساء) شيعه حتى الباب، وتذكرني ابتسامته الواسعة بابتسامة رئيس أميركي.

- **ستحضر ثانية.**

نظراته ثابتة، واثقة، حيادية (مثل لهجته)

في البيت أمسك القلم وكتب :

(كم أنا بعيد عن حارتي الوادعة. أصوات الأطفال زعيق فرامل السيارات الزائرة الوجوه الصفراء في النوافذ الضيقة، البيوت القروية)

- **في دمشق بيوت مثل عندنا؟ . .**

ابتسم والده، فهو يعرف أن دمشق مبنية من الحجر، والبيوت بعضها فوق بعض حتى السماء، لا تعرف الغبار، لاتعرف الحرارة، لا تعرف البرد.

- يا والدي. . في دمشق تتوضح الامور أكثر من هنا.

والده يعرف أن بيوت دمشق كلها مثل بيت الآغا. . . حجر أبيض، اسمنت، حديد، متينة لا يخترقها الرصاص، يحدث خلف جدرانها أشياء كثيرة.

(قالت لي: صحيح ما تقوله. . يحدث خلف جدرانها

أشياء كثيرة، لكنها واضحة أكثر مما تتصور . .

وقالت : احذر من أحمد، احقد عليه، عامله كشخصية

في روايتك فقط، انه وأمثاله كالأخطبوط . . .)

في الزمن الأول كتب

(يجب أن أكلمها أخيرا، لن أضعها في أحلام شعرية،

فمنزلنا غرفة واحدة فراشها أوراق الجرائد، لكننا

سنعمل سوية، ولا بد أن تشرق شمس احدى الصباحات)

وكان لحظتها يتسكع في شوارع دمشق الفسيحة المكتظة.

(يزورنا والدي، ويرى البيوت الطينية. . . لكننا سنحولها في ذلك

في ذلك الصباح الى متاحف، متاحف عن ماض غابر يبتعد كلما

تقدم الزمن وتصير الفلافل شهوة تطلبها كل النفوس).

خطوات خطوات . . فيمسك القلم ويكتب:

(وتبدو دمشق بيوتا ترتفع بعضها فوق بعض حتى السماء هرما

شامخا، قاعدته واسعة و قمته حادة وصلبة.

وقالت لي: سينقلب الهرم ويرتكز بقوة على رأسه الحادة)

عبرت سيارة فخمة (هذا الرجل أحمد، ماذا يريد مني ؟)

معدته تطحن نفسها . .

- **اصبر يا أبا علي اصبر . . سيصير مطعمك متحفا**
- **لاحول ولا قوة الا بالله . . بدون ... بدون مرطبات؟ . . . والله كتاباتك جميلة، لماذا لا ينشرون ذلك؟ . .**
- **جريدة واحدة تنشر لي فقط، جريدة الاشعاع، لكنها غير منتظمة الصدور.**
- **لماذا لا تعمل شيئا آخر؟ . .**
- **عملت وطردت. . عملت وطردت. . لست أدري، هل أنا منبوذ؟.**

(أحمد هذه، لو دعاني على الغذاء لمرة واحدة، مرة واحدة فقط، سيكفيني لأسبوع كامل، ويظن أبو علي أنني سافرت الى القرية)

أمسك القلم وكتب:

(. . . وقلت لها: أموالهم لنا، سنأكل، ونعالج، ونبيت، كل هذا من أموالنا، فقالت: هذا صحيح، لكنا لن نستجديها: سنأخذها. . لا تتعامل معه، لاتزره. . انه خبيث. . هل تذكر برميل النفط الذي جاء ليشتريني من أهلي؟

. . . لقد جن والدي عندما رفضت الصفقة، كن قاسيا والا تاجر بك. . احقد عليه وهمست لي: وعلينا أن نعرف كيف نهطل أمطارا وكيف نتساقط صواعق. . يجب أن نتعلم من أين نصير أشجارا وأين نصبح حرائق.)

يزحف مع الكتل البشرية، يشعربالقيء، قدمه تؤلمه، والمسيرة طويلة بينما يتقدم منه الاستاذ أحمد يمد يده الناعمة ويشده، تصبح الأصابع قوية، يرفعه فيبدو معلقا في الهواء.

- لن تؤلمك قدماك بعد الآن، انك لا تستعملها، يحرك قدميه فيبقى جسده ثابتا مكانه.

أحمد يمسك به جيدا، يجذبه نحوه فيقترب جسده اليه، يقصيه قليلا فيبتعد عنه، يضعه في السيارة وينطلق به، أمامه المائدة و المشروب وامرأة لا تعرف الثياب. . بكلتا يديه يقبض على الفروج، ويضع اللقمة في فمه،تنزلق الى جهازه الهضمي الفارغ. . . الفروج

الأحمر الساخن، والمشروب الحار. . بكلتا يديه يأكل مسرعا خائفا أن ينبت للطعام أجنحة فيطير، وتغيم الصور أمام عينيه، يشتد احساسه بالقيء (يا الهي ما أعظم حرارة الجو).

- ألو. . أحمد؟. .
- . . .
- سأتسكع نحوك
- . . .
- لا. . .لا. . . لست بحاجة للسائق، لحظات وأصل، يمسك القلم و يكتب
(سأجد لذة في استخراج أيام الدراسة على الطاولة،
وكعصفور مدرب سأنقر عينيه في كل كلمة أقولها)
- أهلا عصام. . . هاهو الدكتور د. . .

(يدخل مع الدكتور غرفة العمليات، دقائق و ينتهي كل شيء، الألم يزول، سأطلب منه أن يساعدني بالحصول على عمل ما . .)

- عمل؟ . . هل جننت. . ستتفرغ للكتابة أنا خجل من عرض المال عليك مباشرة. .

لكن خذ. . لا تسيء فهمي، سأتعاقد معك، كل ما تكتبه لي.

(آه قد يكون صاحب دار للنشر)

- خذ. . وستدعوني اليوم على الغذاء، هذه النقود لك. . . وهذا مفتاح شقة في القصاع..

(لم يترك لي فرصة للكلام)

- الشقة مجهزة جيدا. . منذ مدة طويلة لم ينشر لك شيء، لكنك ستعود بقوة. . ابدأ من جديد، وسترى الكتب الأنيقة الضخمة.

أمسك القلم و كتب:

(صرخت بوجهي: حذرتك أن ابتعد عنه.

توددت لها: والآن؟ . .

قالت لي: لنفترق، لايمكن أن نستمر، قفزت اليها وقلت: أحبك..

أجابت ساخرة: وهاهو الحب الحقيقي برأيك؟ .. أنت تحب كل امرأة، أية امرأة. . ثم لاتظن أني تركت برميل النفط من أجل شخصيتك فقط لا أنكر أنني كنت أحبك، لكنني أريد البقاء في قاعدة الهرم، لأنني واثقة أن الهرم سينقلب ويرتكز بقوة على رأسه)

وسار في الشوارع (سأذهب الى الغرفة الباردة الرطبة، وأحضر مسوداتي كلها).

ساقاه اتجهتا به نحو القصاع.

(سأراها ثانية، واذا أرادت رميت بالمفتاح في وجه أحمد).

ساقاه تقودانه نحو القصاع.

(كم هي عنيدة وقاسية، ستتحسن معيشتنا ونصبح قادرين على حركة أكبر .)

ساقاه تقودانه نحو القصاع، وأمامه، في الجهة الثانية من الشارع، كانت تسير رافعة رأسها، تبتسم ابتسامتها الخفيفة الواثقة الهادئة، خلفها يمشي آخر، يراقبها، يود محادثتها، وهي تتوجه الى موقف الباص، الآخر وراءها، يرتدي ملابسه الزرقاء الباهتة ويبتسم.

صرخ عصام بكل قوة باسمها، التفتت نحوه، ضاعت ابتسامتها، أشاحت بوجهها، تابعت الطريق، المسافة بينها وبين الآخر تضيق، ذو الملابس الزرقاء الباهتة يهمس لها، تتوقف، تبتسم، تضحك وتشابك الكفان باتجاه موقف باص المخيم، ميدان، قدم، بوابة،. . .

وساقاه تقودانه نحو القصاع، بينما أحمد يستحثه للركض خلف ألوان قوس قزح، يمر تحت الألوان الدافقة فيصبح امرأة، يجذبه أحمد ويطبق بجسده عليه، يضاجعه، يتركه، يضاجعه، يتركه ثم يختفي تاركا اياه فوق فراش قطني ناعم، ويهرع اليه قوس قزح، يمر تحته، مرة،

اثنتين، ثلاثا. . . لكنه يبقى امرأة منتهكة تبحث عن ثيابها، ويرى التي كانت حبيبته فيبكي، ويسقط فوق الفراش القطني، يركل الهاتف، يدق الجدران بقبضتيه، وينام.

(أنت أيتها الذاهبة في أعماق الشمس المضيئة، لا تتركيني، أنا المنزلق الى عتمة خاوية).

وينام،الزمن، أبو علي، والفلافل، دمشق الهرم، الأزقة الضيقة، دجاجات القرية، الغرف الرطبة، وجهها المضيء، وينام، الجوع، الجوع، الجوع، التخمة وينام.

- **مسودة روايتي الأخيرة ضائعة.**
- **لا تهتم، انس كل كتاباتك القديمة، واكتب من جديد، اترك الأزقة الرطبة، يجب أن تفكر بأن رواياتك ستترجم، فعليك اعطاء صورة مشرقة عن البلد "شوارع عريضة، نيون، تلفزيون، تلفون، سيارات، ..." استعمل كلمات حضارية، يمسك القلم و يكتب:**

(وفي زمن ما يستيقظ في النوم، يراقب زوجته الجالسة الى النافذة، فيلمح تلك الشامة في أول عنقها، فيطوق جيدها الأبيض ويقبله، لكنها تدفعه عنها وترسل ابتسامة جوفاء الى شاب يقف قبالتها على النافذة المواجهة.. وفي هذا الزمن يستيقظ فعلا فينقض على وجهها، لكن الشفتين المرتجفتين، تردعانه، ويجلس في حضنها معتذرا عن شكوكه التي دارت حولها).

ابتسم أحمد كما يفعل رئيس أميركي فقال:

- **رائع. . انها بداية موفقة لقصة تتحدث عن خيانة زوجية. . صارت الصحف تتسابق لنشر نتاجك، أتمنى أن لا تنسى صديقك احمد.**

وتأتيه بوجهها المتعب الصافي، وصدرها الواسع الآمن، فتبدو دمعتان على وشك السقوط. . (وتهمس: قلت لك سيتاجر بك).

لكنه يمسك قلمه ويكتب:

(التلفزيون يعرض اعلانات عن الماكياج، يشتهي جر زوجته الى الفراش، لكنها مشدودة الى الشاشة الصغيرة يجلس ويطلب فنجان قهوة من الخادم، ويفكر باعطاء عاملين من عماله مكافآت مادية، انهما برأيه نشيطان، وينتجان بغزارة. . اندفع بحيوية وأطفأ التلفزيون، ثم ركض الى زوجته بعنف، فجأة يرن الهاتف، يتجاهله قليلا، فتتخلص منه وتمسك السماعة)

- جيد، لكن. . لا تعتبر هذا تدخلا في كتاباتك، وانما أود أن أشير الى أن فكرة العمال زائدة، اشطبها،

يمسك قلمه ويكتب

(. . . . .. .)

في هذه اللحظات كان السيد أحمد يفتح مصنفا أزرق اللون ويكتب في الصفحة الأخيرة. . "وأخيرا أختتم تقريري هذا قائلا أن السيد عصام بدر صار معنا، صحيح أنه أتعبني حتى اجتذبته وقد كلفني هذا الأموال التالية(". . ". . . ". .)

لذا أرفع تقاريري كاملة مع الاثباتات التي شوهدت من خلال كتاباته في الصحف، مطالبا بتعويض الأموال التي أنفقتها في تنفيذ المهمة.

يوسف

ملاحظة هامة جدا:

يوسف بطل قصتي هذه، غير (النبي يوسف)، وان تشابهت الأحداث.

-1- يوسف ملكا

والآن ماذا تطلب؟ . . فخذا؟ . . نهدا. . مالا. . ؟

كل شيء صار ملكك، أي فخذ تشتهي يصير في الحال بين يديك، وأي صدر تريد يحتويك بثوان، ويركع تحت قدميك. أنت الملك، فاسبح في هذه الأثواب الحريرية الشفافة.

هل حلمت بهذا يوما؟ . .

اصرخ فيخرجون. ولماذا تتعب نفسك؟ .. .

اشارة صغيرة من اصبعك توقفهم وتسكب ضجيجهم، واشارة ثانية تعيد كل شيء الى ماكان عليه، فانس ماضيك المليء بالحرمان. . لقد نسوك، أنت ميت بالنسبة لهم، صحيح أنك ملك، لكنك ميت، أهلك لا يعرفون. . انهم يعرفون أنك ميت. الذئب مزقك، عاد قميصك اليهم فارغا ملطخا بالدماء، هل بحثوا عنك؟ . . نعم لقد بحت اصواتهم وهم ينادونك، ولم تجب، كنت قد قررت كل شيء، وصممت على الهرب منهم، لقد حلمت أن تصير كما تريد، لا كما يريدونك هم، والآن أنت ملك، هل أردت أن تكون ملكا؟ . .

-2- يوسف طفلا

يوسف الطفل الجميل، نقي الوجه، ولامع العينين، يوسف الفتى المحبوب، اللطيف،

تتدافع الفتيات لرؤيته، ويتسابق الأولاد لكسب وده. . . يوسف تخبئه أمه في المنزل، وتمنعه من الخروج، والده يبقيه الى جانبه ويحذره من الآخرين.

- انهم لا يحبونك لأنك أجمل منهم ويحقدون عليك، والشيطان يدفعهم الى عداوتك.

يوسف يراقب الأطفال من نافذته، ويقرأ، يراقبهم يلعبون ويركضون، ويقرأ، يلوثون ثيابهم، يلطخون وجوههم، يصرخون بأصواتهم الحادة، ويقرأ.

ينادونه ليشاركهم اللعب، لكن أمه وأباه يحذرانه: "انهم يريدون بك شرا".

ينظر المرآة، يراقب النار. . لماذا لا يرمي نفسه فيها ويحرق هذا الجمال.

انه يريد أن يطير الى عالم مليء بالناس المتشابهين، الذين لا ينظر أحدهم الى الآخر نظرة خفية ملؤها الحسد و الكراهية، أخوته يحاولون استدراجه للعب معهم، لكنه لا يجرؤ، ويفكرون: "انه يكرهنا"، انهم يعابثون الفتيات، بجانب الدار، وهو يسمع همساتهم، يحاول التسلل خارجا فيكتشف أخوته، "انه يكرهنا لأننا يعابث الفتيات".

يوسف يفكر بالهرب، ليصير خادما في بيت واسع، وسط قرية تمتليء بالفتيات اللواتي يضحكن لدى اقتراب أصابع رجل جميل منهن.

-2- يوسف هاربا

يذهبون باكرا، يركضون بين الأشجار يختبئون، يلهون، يشربون ملء البئر العميقة، حيث يمر التجار، ومع سقوط الشمس يرجعون للنوم باسترخاء.

- يا أبت. . أريد الذهاب مع أخوتي الى الغابة
- يا ولدي . . .
- أرجوك، مرة واحدة فقط.
- حسن.

وانطلقت تعدو، أثرت اعجاب أخوتك، أحاطوك بالعناية، علموك أكثر الألعاب.

كم ترددت بالهرب لكنك فعلتها، كنت تستمع الى مناداتهم، وهم يبحثون عنك بلهفة، تستمع وتبتسم، كم أنت ذكي. لقد لطخت قميصك بالدماء، ورميته في الطريق، عندما يجدونه سيتأكدون أنهم تأخروا، وأنت مت. . فيعودون ممتلئين خيبة وحزنا، ومرارة، والدي؟ . يا الهي ماذا سيحدث له؟ سوف تحوم شكوكه حولهم، يتهمهم بقتلي، يخرج عن طوره، يصرخ، يبكي، يطالبهم بالعودة للبحث عني. . يا لسخف مغامرتك، كفى يا يوسف، اظهر لهم، عد الى منزلك، قل لوالدك أنك ستفعل ما تريد من الآن وصاعدا، وأنك لن تبقى في البيت، وأنك تحب الحياة المليئة، وتكره وجهك، ونفسك. . قل له. . لكن كيف ستخرج؟ . . هاه؟ . . لم تحسب حسابا أنك ستنزلق الى أسفل البئر. كنت تظن أن الجدران جافة، وأنك ستتمسك بقوة ريثما يذهبون، لكنك الآن في القاع، والقاع مظلم وزلق، والرضوض في جسدك كثيرة. . من يعرف، قد تنزف دما حقيقيا، ثم تموت جوعا وخوفا وعطشا، . . . لا، على الأقل لن تموت عطشا . . لن تموت عطشا. . . لن . .

.....

.....

-4- يوسف غلاما

.....

.....

- يا الهي انه غلام. . سيدي يا سيدي. .

وجدنا غلاما في البئر.

وجاء السيد يحمل سوطا.

- ياه. . ما أحلاه. . سيكون أفضل هدية أقدمها للملك.

وها أنت في المدى، بين هؤلاء التعساء، الأذلاء الخاضعين. . . أجسادهم الضخمة القوية ترتجف أمام فرقعة السوط، يحملون الأثقال، وينظرون الى بعضهم بكراهية، كل منهم يريد ايذاء الآخر، كل منهم يريد أن يبرهن على أنه الأفضل، أنه الأقوى، والأكثر طاعة، ولماذا تضعهم هكذا؟ . . ألست واحدا منهم؟ . . هل تستطيع النكران؟ . . صحيح أنك لم تتعود ذلك، لكنه عودك عليه، كنت تريد الانتفاخ ففرقع السوط مرة على ظهرك، ونمت ثلاث ليال، منبطحا، وضعت عينيك في الأرض، وصرت تنفذ الأمر قبل أن يكمله فلماذا

تتهمهم؟ . . صحيح أنك فعلت الكثير، لكنك هزمت، تخليت حتى عن الذين التفوا حولك، تخليت عنهم بكلمة واحدة، وهدية متواضعة، وعدك أن تصير رئيسهم، فسكت، فلماذا تشتمهم؟ انظر الى نفسك. . لم يكن يهمك شيء سوى التخلص من عقوبة السحب فوق الرمال الملتهبة، وها أنت تصمت عندما وعدك برفع السوط عن رأسك، ووعدك بقصر الملك، فصدقت وسكت. . نبذوك بشدة، كانوا بحاجة اليك فتخليت عنهم. . لكن. . يكفيني انني حركتهم..؟ هه؟ . . اسكت، اسكت حتى لا تفجر نفسك، انك ضائع، فانتبه لوظيفتك الجديدة، غص مع أحلامك في القصر، فجمالك قد يفيدك بين الجواري، أما ذكاؤك فاتركه جانبا، كان لصالحك مرة، لكن قد يدمرك في المرة الثانية.

-5- يوسف سجينا

يتنهد يوسف، ويستمع الى حكايا رفاقه في السجن، هذا يقتل جنديا لأنه اعتدى على زوجته، ذلك لم يستطع تسديد اجرة الأرض لمالكها، الثالث لم يجد ما يأكله فسرق، أما هو فماذا يقول؟ أيشرح لهم أنه غلام جديد في القصر، وملكته جسد يثير الصخور، تراقب دخوله وخروجه، لكنها لم تفكر بأن له مقدرة التخيل على امتلاك جسدها، والنيران تتأجج في صدره. بينما شعوره بالحرمان يتعاظم، فتعود الى مخيلته هسهسة الفتيات وهن في أحضان أخوته، يمعن النظر الى ساقيها، وهو خافض رأسه كما يجب على غلام أمام سيدته، يرفع عينيه مراقبا تدويرة ركبتيها، ثم فخذها الذي يختفي جزؤه العلوي تحت ثوب شفاف، أيقول لهم أنه ارتمى فوقها بينما هي نائمة، مغطيا فمها بكفه العريضة، تاركا ليده الأخرى وشفاهه حرية البحث المتلهف؟ انتفضت من المفاجأة، صرخت، قفز محاولا الهرب، لكنها استطاعت امساك قميصه من الخلف، متشبثة به، لقد اتهمها البعض بأنها البادئة، فجماله وخجله يدفعان الكثير الى الوقوف بجانبه.

أيقول لهم ذلك؟ لابد أنهم سينبذونه، وسيصير وحيدا في قلب الوحدة، اذا لماذا لا يصدق قصة أصحابه: هي التي اعتدت عليه، وهي التي حاولت معه كثيرا، فصدها، صدها برفق لأنها ملكته، أصرت، تهرب منها، أحضرته اليها محاولة اغتصابه، هددها بالصراخ، فسبقته الى ذلك، وقبضوا عليه.

- **يا للنساء. . .**
- **تريد امتصاص رحيق هذا الجمال؟**
- **شرك لعين.**

- مسكين يا يوسف.

وراح يوسف يتكلم عن سعادة تغمر الوجوه، وحب لا يموت، وأطفال يمرحون بحرية، وضع كل صور الجمال في خياله أمامهم، حتى أحبو الحياة في أحلامه، وأنصتوا الى كلماته.

قال ابراهيم: لكن أين ستكون هذه الحياة، ونحن في السجن؟ .. .

- سنخرج
- كيف
- بالقوة.

تلمس كل منهم رقبته، ثم ضحكوا، عرف يوسف أنهم لم يصلوا الى الاقتناع الكامل شرح لهم خطته.

- لن يموت أكثر من عشرة
- وماذنب العشرة؟ ..
- هل تستطيع تحديدهم؟. .
- أي واحد منا معرض لأن يكون أحدهم.

تطلع يوسف في وجوههم، والحيرة تربكه، كل ما قاله ذهب هباء، تحطم الحلم دفعة واحدة، ولم يتراجع، قال بهدوء:

- نغير الخطة... أنت يا ابراهيم ستخرج قريبا، تعال، أخبرك كيف ستسعى لاخراجي.. بعد خروجي من هنا بشهرين على الأكثر يكون كل واحد منكم في بيته.

-6- يوسف طليقا

يوسف الشاب الجميل، يفسر الأحلام ويناقش بذكاء... يخرج من السجن، يعود الى أحضان الجواري، وينسى ابراهيم الذي ساعده في الخروج من السجن، غاص في اللحم البض، وترك وراءه الانتظار والأمل، يتوقع السجناء من يوسف أن يطلقهم ويجعلهم أحرارا، لكنه يضيع في أروقة القصر..

- لقد فاجأتني في المرة الأولى.
- . . . . . .

- كان عليك أن تأتيني بهدوء ولطف.
- . . . . . .
- انك جميل وقوي.

وذاب يوسف في أحضان الملكة، انتقل الى جناحها، صار رئيس حراسها، وهو ينام على سرير حريري بجانب جسد عابق بالجنس، والعطر، نسي الأحجار التي نام عليها، ونسي رائحة العرق المنبعثة من رفاقه في الغرفة. . . لاشيء يذكره بهم الا ابراهيم الذي يومض له بين الفينة والأخرى.

في البداية استمر معه في اللعبة، لكنه صار يتهرب منه ويبتعد عن كل ممر يقف فيه ابراهيم.

يوسف لا يريد المشاكل، ولا يطمع بأن يكون قائد ثورة، ثم ما حاجته لمئات الرجال الكسالى الذين لا يملكون شيئا. . ضاجع الملكة فصار رئيسا للحرس، يضاجعها، فيصير وزيرا للمال، يعبث بالنقود كيفما شاء، يأمر من يريد، يبتعد عن الوجوه القذرة، التي لاتعرف سائلا غير العرق المتصبب باستمرار، صار يوسف يستطيع مهاجمة رجال الملكة بقوة، فالنساء يحببنه، ويدافعن عنه، انه يعرف رجولة أزواجهن واحدا واحدا، ويعرف أن مشاغل المملكة كافية لاتاحة الوقت له متى شاء للحركة في منازلهم بحرية.

يوسف يصرخ: الى السجن.

ابراهيم يضايقه، فليمر من حيث جاء، الوقت حرج، والملك يعاني سكرات الموت، يجب أن يدافع عن الملكة، انهم جميعهم يريدون السيطرة عليها، الوزراء يتقربون منها وينسون مولاهم في فراشه، مع شبح الوحدة، يلاحقها كل منهم على حدة ليقنعها بالزواج منه أو من ولده. . أو. . أو. . لكنها تبتعد عنهم، وتحتمي بيوسف، فيتزوج الملكة الأرملة.

مقطع دخيل على القصة

-7- ابراهيم يراقب ويبكي

ابراهيم يراقب المنازل المتشابهة التي بناها في أحلامه وهي تنهار، ويرى الذهب الذي وزعه مع يوسف على الناس يطير، تنبت له أجنحة ويطير ليحط فوق القصر من جديد، والثياب الجديدة التي على أجساد الأطفال والنساءوالرجال تتمزق، تهترئ وتبلى.

ابراهيم يرى أحلامه الواحد تلو الآخر تتلاش، وفرح زملائه المساجين يخبو، فانتظارهم لوقت يخرجون فيه الى الشمس والأشجار والعصافير طال . . ولم يعد ثمة أمل . . يوسف يغرق في ملذاته، ظل يؤجل الخطة حتى تتمكن أقدامه، والآن جاء اكثر الأوقات مناسبة، الملك مريض، وكل الحاشية تسعى نحو السلطة، لكن يوسف يهرب منه، ولا يراه. . ويجب أن يعمل وحيدا، سيقابل للمرة الأخيرة، ويعمل بعدها لاخراجهم.

- **الى السجن.**
- **أنا؟. .**
- **الى السجن.**

يوسف الذي كان يسعى للقاء ابراهيم، يوسف، هذا يزج ابراهيم السجن. . . .

ابراهيم الذي خلصه من القبو، ذكرهم به، وقال انه يفسر الأحلام، فتكون المكافأة السجن؟..

- **أيها الجندي. . . ضعوه في زنزانة منفردة. . اسمع. . وزع كل مساجين الفرقة السفلى على زنزانات منفردة.**

-8- يوسف نرسيسا

لن يقف الزمن بجانبك، فهذا الوجه النقي سوف يتجعد، كما حدث لصدر زوجك الذي ترهل، و شعرك الأسود سينقلب لونه، قد يبدو ذلك في البداية مهيبا، لكنه سرعان ما يتحول الى علة. .

انتصابك ينحني، صوتك يخفت، عيناك تذبلان. . ثم. . قدرتك، قدرتك الكبيرة على الاحتفاظ بزوجتك تتلاشى. . وما الذي أدراك ماذا فعلت بعد غيابها، لم يرزقها زوجها الأول طفلا، فأعطيها انثى صغيرة، غدا تموت، ويستلم أحدهم هذه الصغيرة مكانك، لا بد أن يرث مملكتك، وقوتك، قد يزيحك قبل الموت، لن تستطيع الدفاع عن نفسك، راقب المرآة هاهي شعرة تنتصب محذرة اياك، أنت تقلعها؟ لن يفيدك ذلك، ستنزع كل شعرك يوما ما، شيء مضحك أن يكون الملك أصلع. . جمالك سيصبح تاريخيا، وهاأنا انبهك، الأولاد سيكبرون، وجمالهم يزدهر، ولن تعرف من هو الذي سينتقل من مقصورة الى اخرى في قصرك، من هذه الى تلك، ومن. . الى. . قد يصل الى ابنتك فأين المفر؟

. . . الزمن لن يقف. . . . فهناك من يتقدم اليك باسما واثقا. . . انه في كل العيون، في كل الوجوه. . في . . . كفى. . . كفى. . .

-9- مقطع آخر دخيل على القصة بعنوان "هل فقد يعقوب حاسة الشم"

- مشارف قافلة أولادك تظهر يا يعقوب.

يعقوب يعيش في ظلمة دائمة، لكنه يتصل مع العالم الخارجي بأصابعه، وأنفه، هاهو ينتظر عودة أولاده ومعهم ابنه يوسف . . .

يعقوب في شوق ليوسف، ولده الصغير المحبوب، كم من السنين مضت لم يشم رائحته، لم يتلمس ملامح وجهه، لأنه لا يملك من آثاره سوى القميص الملطخ بالدماء والذي لازال يحتفظ به. يحضره كلما تذكره. يغرق في عبق الذكريات الجميلة عن براءة الطفولة المقتولة. يتذكر سخرية أولاده منه كلما قال لهم (يحدثني قلبي أن يوسف لا زال حيا) لم يقتنع أن الذئب أكله، و لم يوافقوه بالبحث عنه ثانية، والآن تأتيهم أخباره، وهاهم عائدون، كم هو جميل اللقاء.

يترجل كبير أولاده، يقترب منه ببطء ثم يقول:

- **لم يحضر ابنك، قال أنه مشغول كثيرا... اذا أردته اذهب اليه.**
- **هل رأيتموه؟..**
- **أحضرنا لك قميصا من قمصانه لتتعرف عليه من خلاله.**

أمسك يعقوب القميص بلهفة، وقربه من أنفه يتحسس رائحته، سرعان ما تجمدت ملامحه، هز رأسه وقال:

- **هذه ليست رائحة ولدي يوسف.**

-10- يوسف طاغية

- أيها الوزير، هل سافرت اخوتنا؟

- نعم يا مولاي.

- نظف القاعة التي كانوا بها جيدا، كانت أجسادهم وسخة.

*** ***

- وزيرنا

- مولاي ؟

- أصدر الأمر التالي "يمنع استعمال المرآة في كل أنحاء المملكة".

- أمر مولاي.

- أفرغ القصر من المرايا.

- أمر مولاي.

*** ***

- أيها الوزير.

- مولاي.

- بدل كل جواري القصر. واحضر بدلا منهن أخريات دميمات.

- أمر مولاي.

*** ***

- أيها الوزير، أعط الأمر بخصي كل غلمان القصر.

- مولاي؟.

- اخص كل الغلمان.

- أ. . أمر مولاي .

*** ***

أشار الملك يوسف باصبعه فسكت الجميع، ونظروا الى وجهه الممتليء بالتجاعيد.

أشار مرة أخرى فخرج كل الحاضرين. وقال بصوت متهدج:

- فليبق وزيرنا.

انحنى الوزير مطيعا.

- **أمر مولاي.؟. .**
- **هل أحضرت كل فتى جميل في المملكة؟**
- **نعم يا مولاي.**
- **أدخلهم.**
- **انظر اليهم من الشرفة يا مولاي، انهم كثيرون.**

وسرعان ماامتلأ البهو بهم.

- **ماذا تريدون؟**
- **لا تشوه الفتيان.**
- **لقد أصدرت أمري.**
- **تلغيه.**
- **الملك يتراجع؟ . .**
- **أفضل من أن يزاح.**
- **هل هو تهديد. . ؟**
- **لقد فعلنا ما تريد، وساعدناك في كل شيء، أما أن تهددنا نحن بالذات.**
- **والآن؟**
- **اترك القصر وارحل.**
- **لن يقبل الشعب بذلك، سيثور.**
- **الآن صرت تفكر بالشعب؟..**
- **لا. . لا تخف لن يخسر شيئا.**
- **الحوادث تجري هنا، وهو لا يهتم بأمورنا.**
- **نعم الملك يود الذهاب في رحلة طويلة.**

-11- يوسف أوديبا

هل فقأ يوسف عينيه ؟ ؟ ! ؟ !!

الشرف

-1-

يهمس لي صديقي نزار: (راقب زوجتك).

فأفكر لذاتي: "لا أستبعد ما يقصد، تاريخها لن يعصمها من الخيانة" ويقول الراديو "السادات يبيع القطاع العام بالمزاد العلني"

بينما زوجتي تحتضن صاحب أكبر محل للأزياء في المدينة، كان يداعبها بشغف ورغبة، فتعانقه ويرتميان فوق الملابس زاهية الألوان ليختفيا ضمن أكوام الثياب، هي تهمس "كل ذلك لي؟. . ." وهو يهز رأسه موافقا ، بينما يداه تمزقان ثوبها المهتريء... فأندفع بكل قوتي نحوهما قاصدا عنقها، وأصابعي مضمومة بشدة.

فجأة استيقظت يغمرني العرق، لأراها بجانبي تغمغم بلطف، وتشدني اليها بقوة، فأجلت نظري في الغرفة الباردة، وتأكدت من نوم طفلنا المريض، ثم جاريتها في لعبة الحب... لكنها فتحت عينيها ونظرت نحوي مقطبة قائلة باشمئزاز:

- أنت ؟!. . .

وأدارت ظهرها لي وهي تتمتم:

- لماذا توقظني في أحلى لحظات النوم؟

أحسست بالخجل والبرد، فنهضت أضع المزيد من الأغطية فوق طفلي، وراعني لونه الأصفر الذي ذكرني بالموت رغم صوت خرير أنفاسه الواضح، فاستلقيت بجانبه أعانقه، مفكرا بطريقة للحصول على سلفة أعرض بها طفلي على طبيب وأشتري فستانا لزوجتي التي تتهمني بالتقصير في حقها، وتصرخ أحيانا، انها لو تزوجت آخر لكانت تسكن فيلا رائعة تدخلها الشمس من كل الجهات، ولتعلمت قيادة السيارات وقضت الصباح في مدينة و المساء في أخرى. . .

وكنت أصدقها، فوالدها كان غنيا يشار له، ومع هذا فقد غمرته الديون فجأة وأعلن افلاسه، لو تزوجت "فلان بك" لساعد والدها في المحنة. . . لو. . لو. . لكنهم جميعا كانوا يعرفون الافلاس القريب، الا أنا، فقد قلت لها:

- قد نسكن في غرفة واحدة.

فأجابت باسمة:

- الحب لا يعرف عدد الغرف، ولا يفهم بأثاث المنازل.
- لا أجمع ثمن فستان الا خلال شهر.
- نحيا عراة معا.
- وأنا أغار جدا.
- فليسقط جميع الرجال.
- وعندما أحس بالخيانة أتوق لرؤية الدم.

ثم هززت رأسي وغفوت.

-2-

يهمس لي صديقي "اشرب لعلك تنسى" ويقول الراديو "السادات يعلن استعداده للسفر الى اسرائيل.

وأنا أفكر بالبكاء والصراخ والعويل، أتمنى لو أستطيع تحطيم كل الأشياء حولي، وتحطيم رأسي الصغيرة، ثم الغوص في أعماقي وتمزيقها، يا الهي كم هي مخيفة الأعماق المحترقة، وكم هي رائعة الدموع التي تدفع الحرارة الى الخارج، منذ عام وأنا أحترق، منذ عام تقريبا تبتعد زوجتي عني وهي في غرفتي، أراها صباحا لا تراني، أنام بجانبها ليلا لا تحس بي، أكلمها ولا تسمعني، وعندما ألمسها بلطف، عندها فقط ينبجس من أعماق عينيها الخطر والحقد، أين تكونين الآن أيتها الحالمة بالأثواب والسيارات والمنازل الفروشة حديثا؟.

لمن تكون هذه الابتسامات التي ترتسم على وجهك وانت غارقة في النوم؟ . . أين هي وعودك بحياة رخاء نفسي؟!. . أين هي شعاراتك حول التواضع والتعاون والتضامن خيرا وشرا؟ . . .

كنت حلمي قبل الزواج، فظننت أني حققت حلمي بالزواج منك، لكنك لا زلت حلما ولغزا معقدا لا تحله الا الألوان الزاهية، والمناظر المنسقة، . . كم قلت لك أن الغرف الرطبة لا تلائمك ؟ . . وأن راتبي في المعمل لن يكفي واحدة مثلك؟ . . وأنني متعب و منهك أكثر من أي حمار؟ . .

أيتها الدموع اخرجي.

أرجوك أيها البقاء أنقذني. .

يا (حليب السباع)، أيها الريان امتليء في جسدي، واجعلني كلبا في سوق مليء بالعظام،

أو أعطني قوة القتل والتدمير، أعطني شجاعة اغتصاب زوجتي النائمة بقربي، البعيدة عني، وليكن الاغتصاب الأخير، ثم لأدفع في أعماقها قنبلة تفجرنا معا.

-3-

وهمس نزار "ايران تستيقظ".

وقال الراديو أشياء كثيرة عن رجل بشع يفوز بعرش الأناقة العالمية، ويحصل على صولجان الحب، بعد أن شد "بيغن" الى صدره بحرارة، وتحادث مع "غولدا مائير" ببساطة، بينما الدماء تسيل، وتملأ الشوارع بلون أحمر يسحرني ويشدني اليه لأغوص في بحر من الدماء التي تنبع من الاذاعات.

ولابد أن مصيبة قد وقعت على رأس الكرة الأرضية فخلخلت الأدمغة وحركت كل الرؤوس حتى رأس صاحب المعمل الذي أعمل فيه. . .

- يا عصام، أسمعنا أخبار دمشق.
- يا عصام، افتح المذياع على محطة اسرائيل.
- ما يقولون الآن في أمريكا والاتحاد السوفييتي والعراق وايران؟ . .
- كلهم يقولون لا..لا..لا..

ويهمس صديقي نزار "معظمهم يرافقه في هذه الرحلة"، لكنني كنت أذكرها كلما ألمت بي الرغبة في البكاء والضرب والتدمير، فتندفع صورتها الى عيني، وأنا أصرخ بوجه صديقي:

- أين هم؟ . . هل أنت أعمى؟. . لقد بحت أصوات الزعماء العرب وهم يصرخون لا.. لا.. لا..

فابتسم وقال بهدوء:

- انهم يلبسون قبعات الاخفاء ويتجولون الى جانبه في القدس، وأزفر بقوة، ثم أحاول

ابتلاع هواء العالم، وأضربه بالمذياع الذي يتحطم أجزاء متناثرة. . . ثم أعود الى هدوئي مع "الحمراء" و "أبو سعدي". لكنه لا يتركني بل يوجه الي كلمة أخرى بكل ثقة:

- حتى تتخلص من فقرك المادي والفكري عليك أن تقتله.

وكان الفقر رجلا يلبس قبعة الاخفاء ويعقد الصفقات مع التجار وأصحاب المعامل والمقاولين والزوجات الجميلات، فأحسست به يسرقني، وتمنيت لو أستطيع الاستيلاء على قبعته لأصير عفريتا، أبحث عندها عن طريقة أتأكد فيها من خيانة زوجتي، وانقل طفلي الى غرفة تدخلها الشمس، من كل الجهات، ثم أعقد (الصفقات) مع ذوي الأيدي المشققة ومع الذين يبحثون عن الدموع فلا يجدونها، ويغرقون في بحر مياهه حليبية له رائحة وخازة، فنهجم سوية على الأبنية الجميلة والمحلات الزاهية، كما يفعلون في التلفزيون "تشتعل النيران" يتحطم الزجاج، تسيل الدماء، تنطلق قذائف الحجارة لتلقي بقذائف رصاصية، يصرخون: النصر للحجارة. . . يا للفظاعة، ما أسرع مخيلتي في رسم الصور المتحركة، وما أبشع ردود فعلي الآنية، فلماذا أحطم المعامل؟.. صاحب المعمل يعاملني بلطف.. صحيح أنه لا يعطيني ما استحق لكنه يعاملني بلطف وأدب، وهو يحبني ويستطيع أن يحل لي الكثير

من أزماتي المالية، فقلبه رقيق، وأنا لن أنسى أبدا عندما رأيته مرة يطعم كلبا قطعة كاملة من اللحم.

-4-

و تنقلنا الحضارة بأجهزتها الحديثة الى ايران، حيث يغرق العرش و الصولجان في بحر من الدماء الزاحفة بقوة، تزيح في طريقها قلاعا ترتكز على نظام حاولت أن تعيش. .

وتقفز الصور الى السادات الذي يبتسم بقلق.

والى بيغن الذي يبتسم بقلق.

يبتسمون ويربتون على أكتاف بعضهم، يقرأون الأوراق، ويوقعون، ويتعانقون والنار تندلع فترتوي أدمغتهم بالخوف والاضطراب والقلق..

ينبض قلبي خوفا.. فأين أنت يا نزار؟ . . أين أنتم يا شباب ؟ . . أين حماستكم؟ . . أين دماؤكم الفتاكة التي تغلي حقدا؟ . . امزجوها في دمي، فلينتقل حقدكم الى قلبي.. ادفعوني اليكم، غيروا أعماقي بأخرى جديدة، لا تخافوا . . لن أشي بأحد منكم فأنتم تتعرفون الى الحقائق وتعيشون المأساة، لكنكم في توق شديد الى أرجل خضراء. . بينما مأساتي تقف عند حدود المأساة، اللون الأسود قاتم لا يخترقه الضوء. اللون الأسود يحيط بي. . .

الصقوني بكم.

دعوا رأسي يلقي عنه تراكمات الغبار. . أريد أن أصدقكم أن صاحب المعمل يطعنني.. وأنه شريك للسادات، وأنه يفضل اسرائيل على استيقاظي....

أحبكم فأظهروا عطفكم..

لكنه يحبني.. هل يحبني؟..

أيها المعتوه الأبدي، أخرج من أعماق نفسك وانظر حولك.. أنت تدعي سكونية الأشياء..لا.. الأرض تتحرك، ولن تستطيع النوم فوق أرض تسعى للانفجار...

هيا ساعدها.. أسرع في تحريكها..

أيها المعتوه الباحث في الشوارع عن خمارة عتيقة رطبة... انظر أمامك، أليست هذه زوجتك التي تركب سيارة جميلة أليست هي التي تقف أمام تلك الفيلا؟.

انها تزور صديقها؟

انظر بعينيك اذن، البارحة كانت تدافع عن نفسها، وكانت تصد تهمتك بابتسامتها التي قتلتك، ...أمسكها، اتبعها، اقذف صدرها بسكين مسمومة...

انها تخونك من خلف ظهرك...

لم يكذب عليك نزار، لم يكن يريد اغضابك فقط؟ .. كان يعرف ما يحدث، وأنا الذي ظننت أنه يريد اثارة حنقي على صاحب أكبر محل للأزياء في المدينة، وبالتالي عليهم جميعا...

أنا الذي ظننت... فلتبتلعني الأرض، فليحاصرني الموت...اوه أيها العالم الغريب... لو كنت كرة زجاجية صغيرة لحطمتك ونمت..

ليتني أستطيع الصراخ..

ليتني أستطيع الصراخ ..

الآن، الآن بالذات سأقضي على ذلك الجسد الملوث، وليمت هذا الحب القائم على أعمدة خشبية مسوسة.

هل أحبك يا نزار؟. .

هل أكرهك يا نزار ؟ . .

هل أحبك لأنك فتحت عيني على تلك الحقيقة القاتلة؟ . .

كم مرة قلت لنا بلهجتك الهادئة والقاسية

- **وزوجاتنا . . من يضمن أن الجميلات منهن لسن في أحضان أسيادكم. . ؟ وأرضنا..؟**

هل نعيش عليها فعلا؟.. أين هي تلك الأماكن الجميلة التي نسهر فيها؟.. أين هي تلك المساكن الجميلة التي نسكن فيها؟.. أين هي الملابس الجميلة التي نلبسها؟..

والآن أشعر بالسكين تخترق لحم ظهري، وتفتح قلبي كسهم "كيوبيد" المولد للحقد والكراهية... هل نبتت القرون؟.. ألسنا جميعا نمتلك قرون ثيران غبية؟..

- **كيف أتصرف يا نزار ؟**
- **اتركها. . اعزلها. . طلقها. . ليس لك الا هذا .**

- **اترك هذه النصائح المضحكة لنفسك، لو كنت بدلا مني أكنت تركتها؟.. ألم تقل ذات مرة "علينا بقتل كل الخونة" ؟..**
- **اهدأ يا عصام، عليك بتصور العلاقات الحياتية على شكل دوائر، دائرة صغيرة، وأخرى أكبر تحتويها وأخرى أكبر تحتويها .. وهكذا.. لكي تنظف الكبيرة عليك أن تبدأ بالأصغر، لكن طرق التنظيف تختلف حسب الموقع..**

لا أفهمك، ولن أفهمك، لا أريد ذلك.. دعوني وشأني، دعوني مكبلا بالخوف والخيانة والعار.. اتركوني اقاتل ... وأمزق نفسي، وأذرف الدموع، اتركوني أفك قيدي وحيدا.. سأبحث عن طريقة أقتل فيها دون الوقوف وراء القضبان، وبلا انتظار للمحكمة، والقضاء والعدل، سأذبحها وأذبحه، فأين الخناجر؟.. والمسدسات؟.. والقنابل؟.. ايه، ايتها الحالمة بالسيارات والشاليهات، والمنازل الريفية والقصور المدنية، سأجعلك تسكنين قبوا رائعا في أعماق الأرض.

-5-

وصرخ المذيع: "الشاه يرحل الى مصر".

فصرخت الأشجار والعصافير والشوارع والبيوت، وكل شيء كان يصرخ بقوة حتى يقع منهكا متعبا، الناس يصرخون في الشوارع، يعبرون عن غضبهم... أما صديقي نزار فكان يتكلم بهدوء:

- **كل شيء كان واضحا، منذ البداية، تمام الوضوح.**

كنت هاربا وملتجئا عنده، كان يخبئني، حاولت قتلها ففشلت، كانت خارجة من الفيلا كالطاووس، ولما فتح لها باب السيارة، اقضضت عليها، دفعته بعيدا ودققت رأسها بالطرف الحديدي للباب، وشعرت بيديه تطوقان رقبتي، وبكل ما أملك من عزم، استدرت نحوه، أحاول تهشيم وجهه، لكن الناس كانوا أسرع، تدخل رجال الأمن، شرحت لهم القصة، جمعت كل قوى التعبير لدي لأوضح الصورة، واستطعت استمالة قلوبهم، لكنه "ابن العاهرة" بكلمتين منه يعرفهم عن نفسه، أرادوا اعتقالي نظرت حولي أرقب منفذا أندفع نحوه، فما وجدت الا الجدران تحيط بي، جدران من أجساد البشر المتزاحمة التائقة لمشهد عنف يريح الأعصاب المشدودة، كنت أحس بهم صيادين يتطلعون بشغف الى الفريسة، أينا سيكون الفريسة، أنا أم هو؟.. هو أم أنا؟...

لكن نزار وصديقين آخرين يعملان معي، استطاعوا تشكيل حاجز بيني وبينهم وسرعان ما اندسست بين الصفوف وانسحبت خائبا ممزق الثياب....

وقال لي نزار: الشاه في مصر، ويستعد لزيارة المغرب، وبعدها الى أمريكا، هكذا كنت أقول على الدائرة الأكبر. أما الدوائر الأخرى فهي الأصغر، لكنها تحيط بمعصميك ورقبتك جيدا.

ثم أيقظني صباحا وقال:

- **اذهب الى المعمل.**
- **والشرطة ؟ . .**
- **لا تخف. . انه ليس غبيا لهذه الدرجة، لن يطلب من الشرطة محاكمتك، لأنه لا يريد الفضيحة. . اذا كان سيضايقك فانه سيحاصرك عن طريق صاحب المعمل .**

- **لكن صاحب المعمل يحبني ؟ . .**
- **أتمنى ذلك.**

في البداية كنت غاضبا حانقا أريد القتل، و الآن صرت خائفا هاربا أريد النجاة بنفسي.. ولقد نجوت جسديا، لكن معلمي الرائع طردني فور وصولي، طردني وضربني وشتمني، ثم ختم البواب الجديد المعافى مؤخرتي بقدمه، وخرجت وحيدا بين الناس، أخاف الوحدة، وأخاف الجمهرة، أخاف أقرب الناس الي، أيها الأحباب، كم أخافكم، كم أخاف الأشياء حتى... أنا متعب ومهزوم، منسحب الى غابة كبيرة، لاحدود لها، والأغصان عارية رمادية اللون كأصابع عجفاء رفيعة قاسية. وجدت نفسي عاريا كالأشجار، أصفر اللون، منهك القوى... برز لي من بين الأغصان شكل مفزع، طويل القامة، لين الأطراف فامتدت يده الاخطبوطية نحوي، انسحبت محاولا الهرب لكن دفعة من الوراء القتني بين ذراعيه، وسمعت صوت صاحب المعمل يقهقه عاليا، بينما الأخطبوط يزدوج في الشكل بين زوجتي وصورة صاحب أكبر محل للأزياء... صرخت:

- **النجدة.**

و أنور السادات يبتسم قلقا، وكارتر يبتسم قلقا، وبيغن يبتسم قلقا...

- **النجدة .**

و نزار و حوله الكثير من عمال المعمل، يقتربون مني بقوة وعزم، ويمدون أيديهم...

الرجل يقطع شريان عنقي، لينبثق دمي على الأرض، ثم يبدأ الثلاثة الرقص فوق جثتي بمرح.

نزار يقترب بتصميم وعناد ليمد يده نحوي.. صرخت.. صرخت.. صرخت. فهزتني يده بقوة وقال :

- **استيقظ يا عصام.. استيقظ، ما بك؟**
- **حسنا . . لقد استيقظت.**

جسد حبيبتي الشهي

-1-

حبيبتي "نون" تحب الشمس والحياةو الأشجار.

تخاف الليل والصمت والصحارى.

لذا فأنا أعرف لماذا تبكي الآن.

انها تبكي بألم وقهر، فنحن في عمق الصحراء، وقلب الليل، مع الصمت الذي لا يخدشه حتى عواء الذئاب.

-2-

السراب، ولا شيء حولنا غير السراب، الخوف، ولاشيء داخلنا الا الخوف.

كنا ستة في السيارة التي تقلنا باتجاه مركز عملي شمالا، حيث أدرس، أنا، وحبيبتي "نون"، زميلي المهندس مع زوجته، السائق، وصحبتنا أحد التجار. غنينا، صخبنا...

طردنا كل أساطير الضياع في الصحاري...

وفجأة.. توقفت السيارة.

ترجل السائق لاعنا وشاتما سيارات العالم كلها.

- **ما الذي حدث؟...**
- **سنرى.**

غنينا، صخبنا...

لكن أساطير الضياع في الصحاري بقيت في مخيلة كل منا..

فقدت أغانينا الحرارة.

صار صخبنا فوضى الخوف، والتشبث بالحياة.

- **ماذا؟..**
- **تعطل الفاصل الواصل.**
- **و الآن؟..**
- **ليس لنا سوى الانتظار، لعل سيارة تمر في الأفق...**

في الأفق، حيث السراب، لا شيء حولنا غير السراب، والخوف، ولا شيء داخلنا الا الخوف.

-3-

السيارات في الصحراء، لا تسافر فرادى.

أقنعنا السائق بالمغامرة، وعدم انتظار قافلة مسافرة.

كنت أحسب ألف حساب، لكيفية القاء الرعب في قلوب الآخرين، عندما سأختلق لهم اسطورة لضياعنا في الصحراء، فمخيلتي خصبة، وحاولت تزويدها بوقائع عن أسماء وأوصاف محلية، فكنت أسأل السائق عن كل منطقة نمر بها...

أما الآن...

أنا خائف.

والخوف لم يسمح لي بالتفكير باختلاق اسطورة. خوفي يتزايد مع تقدم السائق بالحديث عن غيبوبة، وعن نجوم الظهر، وعن الضياع والموت.

ياالهي، الاصفرار يهاجم كل الوجوه.

حبيبتي "نون" ترتجف.

أحاول الضحك، لكن ضحكتي تبدو سمجة وخشنة، كأنها حشرجة.

من أين يأتي الضحك؟...

ها هو الليل قادم يهاجمنا من الأفق..

من الأفق، حيث السراب، ولاشيء حولناالا السراب. والخوف، ولاشيء داخلنا الا الخوف.

-4-

....هل أنا ميت؟...

لدي ذكريات كثيرة حول أعراض الموت عطشا وجوعا..

في البدء تزقزق عصافير البطن، ويجف الحلق، ستشعرون بالدوار، فيصاب البعض بالغيبوبة.

الغيبوبة قد تستمر طويلا، فيصاحبها هذيان شديد.

وفي الهذيان يعترف الانسان بكل شيء....

قد لا يهم ذلك اذا مت.

لكن المصيبة ستكون بعودتك للحياة، فانك ستجد نفسك وحيدا، بلا أصدقاء... وأخيرا تلتمع نقاط مضيئة في أماكن متفرقة من الفضاء، ستزداد النقاط اتساعا...

تتصل مع بعضها ثم تتفرق..

تتغير المساحات و الحجوم، مستطيلة، متطاولة ومنفلشة.

ثم تفقد القدرة حتى على الهذيان.

وتحيطك ظلمة هادئة من كل الجوانب.

وبارتجافة خفيفة لن تشعر بها، تقطع الخط الفاصل بين ماضيك وعالما آخر تتعرف عليه بنفسك...

....بدأت البرودة والقشعريرة تفصل أطرافي عني .

وحبيبتي "نون" تبكي دونما بكاء.

جسدها يبكي دونما دموع.

وأحسست أنها فعلا في قمة الصراخ دون صوت بدأت صورتها تتلوى أمامي..

لم أكن قادرا على الحركة، وجهي باتجاهها، وعيني تنقل لي الصورة مشوهة، بدت ليالوجوه كأنها تنعكس على سطح بحيرة ضاجة بالحركة.

لماذا يتلوون ألما وخوفا؟...

لست متألما ولا خائفا...

كل شيء صامت، الا من أنين مستمر.

لاسراب، ولاخوف...

والكلمات القليلة التي سمعتها أضحكتني دون ضحك.

شعرت أنه يجب أن أضحك لكنني لم أستطع ذلك، كانت طريقة الكلام مضحكة..

الصوت يأتي متثائبا رخوا وبلا حرارة.

- قرأت مرة قصة عن طائرة سقطت في القطب وقد بقي من ركابها جماعة أحياء، لأنهم أكلوا أجساد الموتى منهم.

فكرت أنه علي أن أتقيأ، وتداعت الي صورة الوساخة.

ثم تمطت الى ذهني فكرة، كيف ستكتشف انه ميت؟

هل ستكون لنا القدرة على المضغ..؟

ألم تمر سيارة في الأفق؟...

ليس هناك أفق ولاسراب

ليس هناك ظلمة ولاخوف.

-5-

حبيبتي "نون" تحب الشمس والحياة والأشجار.

تخاف الليل والصمت والصحارى.

لذا فأنا أعرف لماذا تبكي الآن.

انها تبكي بألم وقهر، فنحن في عمق الصحراء، وقلب الليل، مع الصمت الذي لا يخدشه حتى عواء الذئاب.

وجهي ناحيتها...

يبدو جسدها هامدا..

ليست ساخنة كما في الفراش...

ليست متحركة كما في لياليا..

هامدة الحركة والصوت.

همست، فتداعت الى مخيلتي همساتي الأولى "ضميني الى جسدك الحار".

- **نون مابك؟.. لماذا تبكين.**

وددت لو أضحك من صوتي الذي يشبه صوت مسجلة تتحرك ببطء..

وسمعت همسا آخر متقطعا، يأتي من بعيد مع ريح خافتة لم أستطع تمييز الصوت تماما، لكنني فهمت:

- **سأموت... هل ستأكل من لحمي وأنت جائع؟...**

تخيلت فروجا ساخنا في الفرن ..

رأيت جسدها فوق السرير.

وصوتها يهمس: هل ستأكل من جسدي؟..

هل ستأكل ؟ ؟

هل ؟ . .

بانوراما عصامية

البداية

- خذي يا عصمت . . هذه العروسة لك. حدقت الصغيرة في القطعة البلاستيكية الملونة

التي تمثل طفلة ناعمة وجميلة، نظيفة ومرتبة، شقراء الشعر، زرقاء العينين، قفزت اليها، احتضنتها هاربة من نظرات شقيقها عصام، وضعتها الى جانبها، بدأت بمداعبتها.

فجأة استيقظت اللعبة، ناغت، حركت أصابع قدميها كأنها خارجة لتوها من "اللفافة" تمطت بيديها طاردة النعاس، قالت (أناعطشى) كان صوتها متكسرا مرتعشا، والحروف مأكولة.

ذهبت عصمت لتحضر كأسا من الماء، سمعت ضجة في الغرفة المجاورة، رأت شقيقها عصام يجلس أمام قرد صغير يطرق طبلا بنشاط لا مثيل له، اقتربت منه متأملة ساهمة، صرخ عصام:

- اتركيني، اذهبي الى ابنتك، ابتعدت عصمت الى لعبتها، فوجدتها قد ماتت من الضجة والعطش.

-الجلالات-

- زوجتي العزيزة، حبيبتي فارهة الطول اصنعي لنا كأسا من الشاي.

قالها عصام مبتسما، ينتظر اجابة أمين، ...كانت عصمت تستمع الى الحديث بلهفة، عن جلالة الملك السابق، وجلالة الملك الحاضر، تراقب بخيالها الذهب الأبيض، الأصفر ، الأسود، متدفقا على العرش المتين الذي يستقبل السمين والنحيف، الطويل والقصير، وكلهم: جلالات.

قال عصام: كثير من الملوك لا فائدة لهم، أليس كذلك؟

ثم أضاف بحدة: كأس من الشاي يا عصمت.

فجأة اشتعلت النار في جسد عصمت، وبدأت تحضر الماء.

-الفراق-

جلست منزوية داخل الكرسي...

عصام يذرع الغرفة جيئة وذهابا..

ابتعدت قليلا عن المدفأة

(هل تحاول التحرش بي؟) صدم الكرسي بقدمه.

(هل يحاول. . ؟)

(مرت الأيام السعيدة مسرعة..صارت تحاسبني على كل لحظة أغيبها).

(انه يطيل الغياب خارجا، ويمنعني من زيارة الجارة)

(يا للزوجة الحمقاء، هل تظنني ملكا لها)

(لعله يعتبرني لعبة بين يديه؟)

صنع والدها عربة ذات عجلات من الأسلاك الرفيعة وأعطاها لشقيقها، صرخت تريد واحدة، هدأتها الأم، أقنعتها بأن العربة لعبة الصبيان وأنها مصنوعة خصيصا لأخيها وأنها ستخيط لها عروسا جميلة، وستضع لها فراشا صغيرا أيضا.

-انها الحرب-

- انظروا. . . طائرتان

- ياه. . . ماأجملها

- لو ترى جمالهما في الحرب !

- انهما ترتفعان.

- واحدة تنفصل.

- تركت خلفها غمامة

- ستخترق جدار الصوت

- ألا تلاحظ تلك القطع الصغيرة الهابطة نحونا.؟!..

- يا الهي... انبطحوا... انها الحرب... واختلطت ملابسهم الكاكية مع التراب المقلوب.

-احالة-

نحيل القاريء الكريم الى رواية الدكتورة نوال السعداوي "لعبة الأولاد الدائرية".

-البطالة أم الرذالة-

حدق مدير المعمل برؤساء الأقسام وقال :

- **حسنا، ان سبب الاضطرابات الرئيسي هو البطالة..**

لا أقصد هؤلاء الذين يقفون على الباب طلبا للعمل، بل العمال أنفسهم... ان وقتهم غير ممتلئ لذا فهم يملأونه بالأحاديث السخيفة المزعجة، والثرترة والبحث.

- **والحل؟**
- **اخلقوا لهم ما يملأ الفراغ، اخلقوا لهم ما يجعلهم يرجعون الى منازلهم غير قادرين حتى على الوقوف.**

علق أحدهم: فعلا "البطالة أم الرذالة" وقال آخر: هذا سيدفع الى مشكلة أخرى.

- **ماهي؟**
- **الخيانات الزوجية**

ضحكوا ملء حناجرهم.

-المقابر-

جميلة هي "نيودلهي"

وكثيرة هي مقابرها

مقابر للمسلمين... أقول مقابر لا مقبرة.

مقابر للهندوس... أقول.

مقابر للبوذيين... أو

مقابر لـ ... ومقابر...

آه لو كانت في نيودلهي مقبرتان...

لكانت... رائعة هي نيودلهي.

-انها الحرب-

قالت عصمت: لا تخش علي شيئا.

قال عصام: كيف تؤمنين حاجاتك.

أجابت: السمان جارنا، يرسل الصبي يوميا الي.

قال: انها الحرب.

و ذهنه يتشظى كتلك القنبلة العنقودية.

-الجلالات؟-

- عاش جلالة الملك

- عاش. عاش. عاش.

وهمس أحدهم: لماذا لا نغتال جلالته؟

أجاب زميله همسا : أيها الغبي سيأتي جلالة آخر والذي تعرفه أفضل من الذي لا تعرفه.

ثم انطلقا: عاش عاش عاش .

-الفراق-

(لم يبق بد من أبغض الحلال)

(ستكون فضيحة، لكنها أفضل مما أنا فيه)

(لأحاول، لعلها تخاف وتصبح أكثر انقيادا)

(موقف..؟.. يا الهي)

- **هه... و الآن؟...**

كانت تجلس منزوية داخل الكرسي!!

-انها الحرب 3 –

وقف يرقب الظلمة، البندقية تتدلى نحو الأسفل ترقب حذاءه، خشخشة العشب اليابس...

(السمان جارنا، يرسل الصبي يوميا الي).

(السمان سيذهب بنفسه ليخدمك يا عصمت، سترين !؟)

خشخشة ثانية

(كأنها طرقات السمان على بابنا)

حركة من الخلف، وقبل أن يلتفت تلقى صدره طعنة.

-المقابر 2-

تشيلي....

يا قرية نائمة في حضن الجبل

لماذا لا تقف الشواهد على كل القبور؟

مقبرة للمشايخ

مقبرة لنساء المشايخ ورجال العامة.

مقبرة لنساء العامة

آه... لو تكون هناك مقبرتان.

يا قرية نائمة في حضن الجبل.

-انها الحرب4-

"انتبهوا جيدا، العدو غدار"

"بعضكم لا يأتيه التفكير بصاحبته الا في نوبة الحراسة"

"سنكشف دوريات الحراسة، وكل شارد ذهن سنرسله ليفكر بهدوء في السجن.

حسنا يا عصام، الدورية تأتي من الخلف، والعدو يتربص من الأمام...

الدورية بالقرب منك

العدو بعيد...

استدار عصام يرقب المعسكر...

-البداية-

ابريق الشاي يغلي

ابريق الشاي محكم الاغلاق

الضغط الداخلي يزداد... يتوتر، الخارج بات لوحة حمراء...

ينفجر الابريق، يشتعل الحريق، تبدأ الأشياء من جديد.